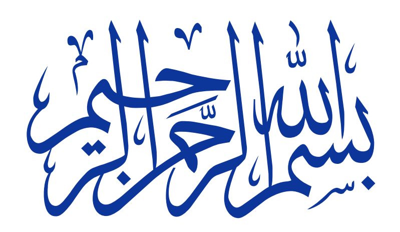


د. علي محمد محمد الصلابي


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إنّ الحمد لله نحمدُه ونستعينه، ونستهديه ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئاتِ أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ الله وحدَه لا شريك له، وأشهدُ أنَّ محمّداً عبدُه ورسولُه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ *﴾ [آل عمران: 102].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا *﴾[النساء: 1].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا *يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا *﴾[الأحزاب: 70. 71].

يا ربِّ لك الحمدُ كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمدُ إذا رضيتَ، ولك الحمدُ بعدَ الرضى.

أمّا بعدّ، إن الأزمات التي تمر بها الإنسانية بعمومها، تحتاج إلى إعادة النظر في عوامل نهوض البشر وإنحطاطهم، ومما لا شك فيه فإن بني الإنسان عندما يرسمون معرفة حقائق الوجود، وسنن الله في خلقه ويبتعدون عن المنهج الرباني، يعيشون في ضنك روحي وأخلاقي وسياسي واقتصادي ونفسي واجتماعي...

إن سنن الله في خلقه علم ذكره الله عز وجل في كتابه العزيز، ومارسه رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته، وراه الدارسون لحركة التاريخ الإنساني، ولذلك اهتمت به، وقد وصلت إلى بعض الأبحاث في دراستي العلمية.

واليوم أقدم للقارأئ الكريم هذا الكتاب الذي يتحدث عن سنة الله في الأخذ بالأسباب.

ولقد تطرقت لهذا المبحث في كتبي عن أركان الإيمان في كتاب القدر، ولكنني رأيت الفائدة العلمية والثقافية في إبرازه في كتيب مستقل أشرت فيه إلى الأخذ بالأسباب في القرآن الكريم.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليه واخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه

د. علي محمد محمد الصلابي

سنة الله في الأخذ بالأسباب

* * *

تمهيد

إنَّ الإيمانَ بالقدر لا يعارِضُ الأخذ بالأسباب المشروعة، بل الأسبابُ مقدَّرةٌ أيضاً كالمسببات، فمن زعم أنَّ الله تعالى قدّر النتائجَ والمسبّبات من غير مقدّماتها وأسبابها، فقد ذُهِلَ عن حقيقة القدر، وأعظمَ على اللهِ الفرية، فالأسباب مقدَّرةٌ كالمسبباتِ[1]، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن الرُّقى، هل تردُّ مِنْ قدرِ الله شيئاً؟ قال: «هي من قدر الله»[2]، وحياة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابهِ كانت قائمةً على الأخذِ بالأسباب، وسيرتُه تشهدُ بأنّه كان يتّخذ كلَّ الوسائل والتدابير وأسباب العمل[3].

إنّ سننَ الله في كونهِ وشرعِه تحتّم علينا الأخذ بالأسباب كما فعل ذلك أقوى الناسِ إيماناً بالله وقضائه وقدره وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، لقد قاوم الفقرَ بالعملِ، وقاومَ الجهل بالعلمِ، وقاومَ المرضى بالعلاج، وقاوم الكفرَ والمعاصي بالجهادِ، وكان يستعيذُ بالله من الهمّ والحزَن، والعجزِ والكسل، وتعاطى أسبابَ الأكل والشرب، وادّخر لأهله قوتَ سنةٍ، ولم ينتظر أن ينزلَ عليه الرزقُ من السماء، وقال للذي سأله: أيعقلُ ناقته أم يتركها ويتوكل؟ قال: «اعقلها وتوكل»[4]. وقال صلى الله عليه وسلم: «وفِرَّ من المجذوم فرارَك من الأَسَدِ»[5].

وما غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم المظفّرة إلا مظهراً من مظاهر إرادته العليا التي تجري حسب مشيئة الله وقدره، فقد أخذَ الحذر، وأعدَّ الجيوشَ، وبعثَ الطلائعَ والعيونَ، وظاهرَ بين درعين، ولبسَ المغفر على رأسه، وأقعدَ

---

[1] منهج الحافظ ابن حجر العسقلاني في العقيدة (428/1).
[2] سنن ابن ماجه رقم (3437) حسن صحيح.
[3] العقيدة الإسلامية ، د. أحمد جلي ص: (391).
[4] رواه ابن حبان بإسناد صحيح.
[5] البخاري 19 (5380/5).

الرماةَ على جبل الرماة، وخندقَ حولَ المدينةِ، وأذن في الهجرة إلى الحبشة، وإلى المدينة، وهاجر بنفسِه، واتّخذ أسبابَ الحيطة في هجرته، وأعدَّ الرواحل التي يمتطيها، والدليلَ الذي يصحبه، وغيّر الطريق، واختبأ في الغار[1].

وكان إذا سافر في جهادٍ أو عُمرةٍ حمل الزاد وهو سيد المتوكلين.

أدرك الصحابةُ رضوان الله عليهم هذا المعنى، وفهموا أنَّ الإيمانَ بالقدرِ لا يعني تركَ الأخذِ بالأسباب، ولهذا أنكر عمر عن أبي عبيدة رضي الله عنهما ربطه القدر بعدم الأخذ بالأسباب، كما ورد في قصة طاعون عَمْواس الشهير، فحين همَّ عمرُ بالرجوع إلى المدينة من حدود الشام، قال له أبو عبيدة ابن الجراح: أفراراً من قدر الله؟ فدُهِشَ عمر لهذا الاعتراض، وقال لأبي عبيدة: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله، ثم أردفَ قائلاً: أرأيتَ لو كانت لك إبل هبطت وادياً له عدوتان، إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيتَ الخصبةَ رعيتها بقدر الله، وإن رعيتَ الجدبة رعيتها بقدر الله[2].

فعمر وأبو عبيدة رضي الله عنهما يعلمان أنّ القدر علم الله السابق بما يحدث، غير أنّ عمر كان يرى أن قدر الله لا دخلَ له في موضوع ربط الأسباب بالمسببات، فالذهابُ إلى الشام مع وجود الطاعون يتسبّب عنه الموت، والرجوع أخذٌ بالأسباب للنجاة من الطاعون، ولهذا أنكر عمر على أبي عبيدة أن يعترضَ عليه قائلاً له: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، ولم يكتفِ بذلك، بل شرحَ رأيه بأنّ الذهابَ إلى الشام ذهابٌ بقدر الله، والرجوعَ إلى المدينة رجوعٌ بقدر الله، أي بعلم الله، مما يدلُّ على أنَّ القدر لا يصحُّ أن يربط بالإقدام على الأعمال أو الإحجام عنها، ولا يصحُّ أن يترك الأخذ بالأسباب بحجة القدر[3].

ولهذا يذهب ابن القيم إلى أنّ الدين هو إثباتُ الأسباب، والوقوف معها، والنظر إليها، وأنَّه لا دينَ إلا بذلك، كما لا حقيقة إلا به، فالحقيقةُ والشريعةُ مبناهما على إثباتها (أي الأسباب) لا على محوها، ولا ننكر الوقوف معها، فإنَّ الوقوفَ معها فرضٌ على كلّ مسلم، لا يتمُّ إسلامُه وإيمانُه إلاّ بذلك (الإيمان)، وبالأسبابُ عُرِف الله، وبها عُبِدَ الله، وبها

---

[1] عقيدة التوحيد ، سعاد مِيْبر ص (212).

[2] البخاري رقم (5729).

[3] العقيدة الإسلامية ، د. أحمد جلي ص (391).

أُطيع الله، وبها تقرّبَ إليه المتقربون، وبه نال أولياؤه رضاه وجواره في جنته، وبها نصر حزبه ودينه، وأقام دعوته، وبها أرسل رسله، وشرع شرائعه، وبها انقسم الناسُ إلى سعيدٍ وشقي، ومهتدٍ وغوي، فالوقوفُ معها، والالتفاتُ إليها، والنظر إليها، هو الواجبُ شرعاً، كما هو الواقع قدراً"[1].

إنّ قدر الله حقٌّ، وقدرُ الله نافذٌ، ولكنّه ينفذ من خلال السنن التي أقام الله عليها نظام الكون، من خلال الأسباب التي خلقها سبحانه وشرعها، وليستقيمَ عليها أمرُ الوجودِ ونظامُ التكليف، فهذه السننُ والأسبابُ جزءٌ لا يتجزأ من قدر الله الشامل المحيط[2].

* * *

(1) مدارج السالكين ، لابن القيم (3/407 ـ 408).

(2) الإيمان بالقدر ، للقرضاوي ص (51).

أولاً . الأخذ بالأسباب في القرآن الكريم:

القرآن الكريم حافل بالآيات التي توجِبُ على المسلمين الأخذَ بالأسباب في شتى مناحي الحياة، والعمل على استقصاء تلك الأسباب للوصول إلى المراد، خاصة في تلك المواقف الصعبة التي تواجه الأمم والأفراد.

ومن النماذج القرآنية في هذا الصدد(1):

1 . قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ *﴾[الأنفال 60].

إنّ أمرَ التمكين لهذا الدين يحتاجُ إلى جميع أنواع القوى، على اختلافها وتنوعها، ولذلك اهتمَّ القرآن الكريم اهتماماً كبيراً بإرشاد الأمة للأخذ بأسباب القوة، وأوجبَ الله تعالى على الأمةِ الأخذَ بأسبابها، لأنَّ التمكينَ لهذا الدين طريقةُ الوصول إلى القوة بمفهومها الشامل، وقد قال الأصوليون: ما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب(2).

وفي قوله: قال ابن كثير: أي مهما ﴿ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾، وهذا التعبير القرآني يشيرُ إلى أقصى حدود الطاقة، بحيث لا يقعد المسلمون عن سببٍ من أسباب القوّة يدخل في طاقاتها(3)، والمراد بالقوة هنا:

ما يكون سبباً لحصول القوة، ولهذا قال أصحاب المعاني: الأَوْلى أن يقال: هذا عامٌّ في كلّ ما تتقوّى به على حرب العدو، وكل ما ههو آلة للغزو والجهاد، فهو من جملة القوة(4)، وورد أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قرأ الآية الكريمة على المنبر، وقال: «ألا إنّ القوةَ الرميُ» قالها ثلاثاً(5).

(1) السنن الإلهية في الأمم والأفراد ، د. مجدي عاشور ص (61).
(2) في ظلال القران (919/2).
(3) فقه النصر والتمكين ، للمؤلف ص: 221.
(4) مسلم مع شرح النووي (64/13).
(5) مسلم (74/1).

وهذا لا ينفي كونَ غير الرمي معتبراً كما قوله صلى الله عليه وسلم: «الحجُّ عرفة»[1]. وقوله صلى الله عليه وسلم: «الدّينُ النصيحةُ». لا ينفي اعتبار غيره، بل يدلُّ على أنّ هذا المذكورَ جزءٌ شريف من المقصود، وكذا هنا[2]. كما يساعد على هذا الفهم مجيء كلمة «قوة» هنا نكرةً لا معرفةً، فهي تشمل كلَّ سلاحٍ معروفٍ أو سيعرف مع الزمن المتجدّد، فهي تتّسع لإعداد الطائرات والصواريخ والدبابات... وكل الأسلحة التي لها التأثيرُ الحاسمُ في المعركة[3]، وتدخل القوة الاقتصادية والسياسية، والأمنية والإعلامية.. إلخ ومعنى : ﴿رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ هي اسم للخيل التي ترابط في سبيل الله تعالى[4]، ومعنى ﴿وءاخرين من دونهم﴾ قال الطبري: هم كل عدو للمسلمين، وذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة ما لأجله أمر بإعداد هذه الأشياء فقال جل شأنه: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ذلك أن الكفار إذا علموا أن المسلمين متأهبون للجهاد، مستعدون له، ومستكملون لجميع الأسلحة والآلات خافوهم، وذلك يفيد أمورا كثيرة منها: أنهم لا يتجرؤون على دخول دار الإسلام، وأنهم إذا اشتد خوفهم فربما التزموا من عند أنفسهم باحترام المسلمين، والاستجابة لطلباتهم، وأنّه ربما صار ذلك داعياً إلى الإيمان، لما يرون من قوة أهله وعزتهم، وأنّهم لا يعينون سائر الكفار.

وما أحوجَ المسلمين اليوم إلى أن يحصّلوا كلَّ أسباب القوة، فهم يواجهون نظاماً عالمياً وقوًى دوليةً لا تعرِفُ إلا لغة القوة، فعليهم أن يقرعوا الحديدَ بالحديدِ، ويقابلوا الريحَ بالإعصارِ، ويقابلوا الكفرَ وأهله بكلِّ ما يقدرون عليه، وبكل ما امتدت إليه يدهم، وبكلّ ما اكتشف الإنسان، ووصل إليه العلمُ في هذا العصر من سلاحٍ وعتادٍ واستعدادٍ حربي، لا يقصرون في ذلك ولا يعجَزون[5].

---

[1] المصدر نفسه.

[2] تفسير المنار (53/5).

[3] التمكين للأمة الإسلامية ، محمد السيد يوسف ص (89).

[4] تفسير النسفي ، نقلاً عن فقه النصر والتمكين ص (221).

[5] ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، للندوي ص (225).

إنّ الواجبَ على الأمة الإسلامية اليومَ لتنهضَ وتتقدّمَ وتترقّى في مصاعد المجد، أن تجاهدَ بمالها ونفسِها الجهادَ الذي أمرها الله به في القرآن الكريم مراراً عديدة، فالجهادُ بالمال والنفس هو العلم الأعلى الذي يهتف بالعلوم كلها، فإذا تعلمتْ هذا العلم وعملت به دانتْ لها سائر العلوم والمعارف[1].

إنّ إعدادَ القوة يستدعي إنفاقاً، وقد تكفّل الله للمنفقين في سبيله بإخلافِ ما أنفقوه والإثابة عليه، قال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ *﴾[الأنفال: 60]، وقد جاء التحذيرُ من عدم الإنفاق في سبيل الله، مع بيان أنّ ذلك سببٌ للإهلاك والمذلّة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[البقرة: 195]، أي: إذا لم تبذلوا في سبيل الله وتأييد دينه كلَّ ما تستطيعون من مالٍ واستعدادٍ فقد أهلكتم أنفسكم، ففي الآية: النهي عن ترك الإنفاق في سبيل الله لأنّه سبب الهلاك[2]، وقد بيّن أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه سببَ نزول هذه الآية، فعن أسلم بن عمران قال: كنا بمدينةِ الروم (القسطنطينية) فأخرجوا إلينا صفّاً عظيماً من الروم، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم، فحمل رجلٌ من المسلمين على صفّ للروم حتى دخل فيه، فصاح الناسُ وقالوا: سبحان الله، يلقي بيديه إلى التهلكة، فقام أبو أيوب الأنصاري فقال: يا أيها الناس؛ إنّكم تتأوّلون هذه الآية هذا التأويل، وإنّما أنزلت فينا معاشرَ الأنصار، لما أعزَّ الله الإسلام، وكثر ناصروه، قال بعضنا لبعض سرّاً دون رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنّ أموالنا قد ضاعتْ، وإنَّ الله قد أعزَّ الإسلامَ وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا، فأصلحنا ما ضاعَ منها، فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم يردُّ علينا ما قلنا: ﴿وَأَنْفِقُوا﴾ ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[البقرة: 195]، فكانت التهلكةُ الإقامةَ على الأموال وإصلاحَها وتركنا الغزو[3]، وعمومُ الآية يقتضي الإنفاقَ في سبيل الله في سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات، وخاصّةً صرف الأموال في قتال الأعداء، وبذلها فيما يَقْوى به المسلمون على عدوهم، والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنّه هلاكٌ ودمارٌ لمن لزمه واعتاده[4].

---

[1] لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟ شكيب أرسلان ص (164).

[2] الكشاف ، للزمخشري (343/1).

[3] الترمذي (212/5).

[4] السنن الإلهية، د. مجدي عاشور ص (164).

إنَّ من أهم السنن الربانية التي ترتبط بعلاقةٍ مباشرةٍ مع سُنن التمكين، سنّةَ الأخذِ بالأسباب، ولذلك يجبُ على أفرادِ الأمة وقادتها العاملين للتمكين لدين الله من فهمها واستيعابها، وإنزالها على أرض الواقع.

إنّ الله عزّ وجلّ أمرنا بالإعداد الشامل في قوله: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [60] وإعداد القوة في حقيقته الأخذُ بالأسباب الشاملة، كقوة العقيدة والإيمان، وقوة الصف والتلاحم، وقوة السلاح والساعد، إنّ الآية الكريمة تحثُّ المسلمين على الإعداد الشامل المعنوي والمادي، والعلمي والفقهي على مستوى الأفراد والجماعات، ويدخل في طياتها الإعدادُ التربوي، والسلوكي، والإعداد المالي، والإعداد الإعلامي والسياسي والأمني والعسكري[1].

2 . قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا *إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا *فَأَتْبَعَ سَبَبًا *حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا ياذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً *﴾ ﴿خُبْرًا * ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا *حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً *قَالُوا ياذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا *قَالَ مَا مَكَّنْنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا *آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا *فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا *قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا *﴾[الكهف: 83 . 98].

فقد وازنَ ذو القرنين بين الأسباب التي أتاحها الله له واتبعها واستقصاها، حتى إنّ القرآن يلحُّ على ذلك، ويبينه، ويكرّر التزامه في العمل بالأسباب، وذلك في مواضع ثلاثة من الآيات التي أشرنا إليها حيث يقول: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا *﴾ [85] وبعدها يكرر: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا *﴾[الكهف: 89 . 92]، وقرن ذو القرنين بما انطوى عليه من أسباب معنوية، وما كان عليه من إيمانٍ وتقوى وعملٍ صالحٍ في قوله: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا *﴾، فاجتمعت له الأسبابُ الظاهرة والباطنة، فكان له التمكينُ والغلبةُ ونفع الناس وإعانتهم[2].

---

[1] فقه النصر والتمكين في القران الكريم للمؤلف ص (214).

[2] السنن الإلهية ، د. مجدي عاشور ص (167).

وذو القرنين عَلَمٌ قرآني بارز، خلّد الله ذكره في كتابه الخالد، إنَّه الرجل الطوّاف في الأرض، الصالح العادل الخاشع لربه والمنفذ لأمره، والقائم بين الناس بالإصلاح، والذي ملك أقاصي الدنيا وأطرافها، فلم يغرّه مالٌ ولا منصبٌ، ولا جاه ولا قوة ولا سلطان، بل إنّه بقي ذاكراً لفضل ربه ورحمته، متأهباً لليوم الاخر ليلقى جزاءه العادل عند ربه، ويكفي أن يبقى ذو القرنين تلك الشخصية العظيمة في التاريخ، وذلك العلمَ البارزَ في العدل والإصلاح والقيادة، ومثالَ الحاكم الصالح على مرّ التاريخ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، بشهادة الكتاب الخالد[1].

إنّ القرآن الكريم اهتمّ بإخراج القيم الصحيحة في سيرة ذي القرنين وأعماله وأقواله مثل:

الحكم والسلطان والتمكين في الأرض ينبغي أن يسخّرَ لتنفيذِ شرع الله في الأرض، وإقامة العدل بين العباد، وتيسير الأمر على المؤمنين المحسنين، وتضييق الخناقِ على الظالمين المعتدين، ومنع الفساد والظلم، وحماية الضعفاء من بطش المفسدين.

الرجال الأشداء ذوو الخبرات الفنية العالية في النواحي العسكرية والعمرانية والاقتصادية الذين كانوا طوع بنان ذي القرنين، وكذلك خضوع الأقاليم له فتحَ الخزائن أمامه، وتقديم خراج الشعوب له طواعية، كلُّ ذلك لم يدخل في نفسه الغرور والبطر، والطيش والغواية، بل بقي مثال الرجل المؤمن العفيف المترفع عن زينة الحياة الدنيا.

الاهتمام باتخاذ الأسباب لبلوغ الأهداف والغايات التي سعى إليها، حيث اتاه الله من كلّ شيء سبباً فأتبع سبباً.

1 ـ الأسباب التي اتخذها ذو القرنين للتمكين لدين الله عز وجل:

أ ـ الدستور العادل:

إنّ المنهجية التي سار عليها ذو القرنين كحاكم مؤمن جعلته يلتزم بمعاني العدل المطلق في كل أحواله وسكناته، ولذلك ساقَ الناسَ والأمم والشعوب التي حكمها بسيرةِ العدلِ، فلم يعاملِ الأقوامَ التي تغلّب عليها في حروبه بالظلم والجور، والتعسف والتجبر، والطغيان والبطش، وإنّما عاملهم بهذا المنهج الرباني،

---

[1] ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح ، لمحمد خير رمضان ص (247 ـ 249).

قال تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا *وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا *﴾ [الكهف: 87 . 88].

وهذا المنهج الرباني الذي سار عليه يدل على إيمانه وتقواه، وعلى فطنته وذكائه، وعلى عدله ورحمته، لأنّ الناس الذي قهرهم وفتح بلادهم، ليسوا على مستوًى واحد، ولا على صفاتٍ واحدةٍ، ولذلك لا يجوزُ أن يعاملوا جميعاً معاملةً واحدةً، فمنهم المؤمن ومنهم الكافر، ومنهم الصالح ومنهم الطالح، فهل يستوون في المعاملة؟ قال ذو القرنين: أما الظالم الكافر فسوف نعذبه لظلمه وكفره، وهذا التعذيبُ عقوبةٌ له، فنحن عادلون في تعذيبه في الدنيا، ثم مرده إلى خالقه لينال عذابه الأخروي.

إنّ الظالم والباغي الكافر في دستور ذي القرنين معذّب مرتين، مرة في الدنيا على يديه، والأخرى يوم القيامة، حيث يعذّبه الله عذاباً نكراً، أمّا المؤمن الصالح فإنّه مقرّبٌ من ذي القرنين يجزيه الجزاء الحسن، ويكافئه المكافأة الطيبة، ويخاطبه بيسر وسهولة وإشراق وبر ومودّة[1].

لقد كان ميزانُ العدالة في حكمه بين الناس هو التقوى والإيمان والعمل الصالح، وهو دائماً يتطلع إلى مقامات الإحسان.

ب . المنهج التربوي للشعوب:

إنّ الله تعالى أوجبَ العقوبة الدنيوية على من ارتكبَ الفساد في المجتمع، وكلّف أهلَ الإيمانِ ممّن مكّن لهم في الأرض أن يحرصوا على تنفيذ العقوبات للمفسد والظالم لكي تستقيمَ الحياة في الدنيا.

إنّ ذا القرنين يقدّم لكلِّ مسؤول أو حاكم أو قائد منهجاً أساسياً، وطريقة عملية لتربية الشعوب على الاستقامة والسعي بها نحو العمل لتحقيق العبودية الكاملة لله تعالى[2].

---

[1] مع قصص السابقين في القران ، للخالدي (2/330 . 331).

[2] فقه النصر والتمكين، للمؤلف ص (142).

وهذا دستورُ الحاكم الصالح، فالمؤمنُ الصالح ينبغي أن يجدَ الكرامةَ والتيسير، والجزاء الحسن عند الحاكم. والمعتدي الظالم يجب أن يلقى العذابَ والإيذاءَ، وحين يجدُ المحسن في الجماعة جزاءَ إحسانه جزاءً حسناً أو مكاناً كريماً وعوناً وتيسيراً، ويجد المعتدي جزاءَ إفسادِه عقوبةً وإهانةً وجفوةً، عندئذٍ يجدون ما يحفّزهم إلى الصلاح والإنتاج، أمّا حين يضطربُ ميزانُ الحكم، فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم، مقدّمون في الدولة، وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون، فعندئذٍ، تتحوّلُ السلطة في يد الحاكم سوطَ عذابٍ، وأداةَ فسادٍ، ويصيرُ نظامُ الجماعةِ إلى الفوضى والفساد[1].

إنَّ التربية العملية للقيادة الراشدة هي التي تجعلُ الحوافز المشجعات هديةً للمحسن ليزدادَ في إحسانه، وتفجّر طاقة الخيرِ العاملةِ على زيادة الإحسان، وتشعره بالاحترام والتقدير، وتأخذُ على يد المسيء، حتى يترك الإساءة، وتعمل على توسيع دوائر الخير والإحسان في أوساط المجتمع، وتضييق حلقات الشر إلى أبعد حد، وفق قانون الثواب والعقاب المستمدّ من الواحد الديان[2].

ج ـ الاهتمام بالعلوم المادية والمعنوية وتوظيفها في الخير:

قال تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا *﴾[الكهف: 84] إنّه شخصٌ مَكَّنَ له ربُّ السماوات والأرض الخالق المدبّر المتصرّف في شؤون الكون، رب العزة والجبروت، مكَّن له في الأرض، وآتاه من كلِّ شيءٍ سبباً، وينصرف ذهن السامع أو القارئ إلى وجوه التمكين له في الأرض: مكّن له في العلوم والمعرفة، واستقراء سنن الأمم والشعوب صعوداً وهبوطاً، ومكّن له في سياسة النفوس أفراداً وجماعات تهذيباً وتربية وانتظاماً، ومكّن له في أسباب القوة من الأسلحة والجيوش وأسباب القوة والمنعة والظفر، ومكّن له في أسباب العمران وتخطيط المدن وشق القنوات وإنماء الزراعة.

---

(1) في ظلال القران (922/4).

(2) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (624/2).

ومهما قيل ومهما تصوّر من أسباب التمكين الحسنة التي تليقُ برجل رباني قد مكن له في هذه الأرض يمكن أن يدخل تحت قوله تعالى: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا ﴾ ويبقى للتصوّر مجالٌ، وللخيالِ سعةٌ، لاستشفاف صورة هذا التمكن وأشكاله، وذلك من خلال المؤكّدات العديدة التي وردت في الآية الكريمة[1]

ونلاحِظُ من خلال الآيات أنَّ ذا القرنين وظّف علوماً عدةً في دولته القوية ومن أهم هذه العلوم علم الجغرافية، حيث نجد أنّ ذا القرنين كان على علم بتقسيمات الأرض، وفجاجها وسبلها، ووديانها وجبالها، وسهولها، لذلك استطاع أن يوظِّفَ هذا العلم في حركته مع جيوشه شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، ولا يخلو الأمر أن يكون في جيشه متخصصٌ في هذا المجال[2].

كان صاحبَ خبرةٍ ودرايةٍ بمختلف العلوم المتاحة في عصره، يدلُّ على ذلك حسن اختياره للخامات، ومعرفته بخواصها، وإجادته لاستعمالها والاستفادة منها، فقد استعمل المعادنَ على أحسن ما خُلقت له، ووظّف الإمكانات على خير ما أُتيحَ له: ﴿ ءَاتُونِي زُبُرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا *﴾ [الكهف 96].

أمرهم بأن يأتوه بقطع الحديد الضخمة، فأتوه بها، فأخذ يبني شيئاً فشيئاً، حتى جعلَ ما بين جانبي الجبلين من البنيان مساوياً لهما في العلو، ثم قال للعمال: انفخوا بالكير في القطع الحديدية الموضوعة بين الصدفين[3]. فلما تمَّ ذلك، وصارت النارُ عظيمةً، قال للذين يتولّون أمرَ النحاس من الإذابة وغيرها: أتوني نحاساً مذاباً أفرغه عليه، فيصير مضاعفَ القوة والصلابة، وهي طريقةٌ استخدمت حديثاً في تقوية الحديد، فوجد أنّ إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعِفُ مقاومته وصلابته[4].

---

[1] مباحث في التفسير الموضوعي ، د. مصطفى مسلم ص (304).
[2] الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (624/2).
[3] روح المعاني ، للألوسي (40/16).
[4] فتح القدير (313/3).

كان واقعياً في قياسه للأمور، وتدبيره لها، فقد قدّر حجم الخطر، وقدّر ما يحتاجُ إليه من علاج، فلم يجعل السور من الحجارة، فضلاً عن الطين واللبن، حتى لا يعودَ منهاراً لأدنى عارض، أو في أول هجوم، ولهذا باءت محاولات القوم المفسدين بالفشل عندما حاولوا التغلب على ما قهرهم به ذو القرنين:

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا *﴾ [الكهف 97]، أي لم يتمكنوا من اعتلائه لارتفاعه وملاسته، وما استطاعوا أن يثقبوه لصلابته وثخانته[1].

لقد كان ذو القرنين على علم بأخبار الغيب التي جاءت بها الشرائع، ومع ذلك لم يتخذ من الأقدار تُكّئةً لتبرير القعود والهوان، فقد بنى السدَّ، وبذل فيه الجهدَ، مع علمه بأنّ له أجلاً سوف ينهدم فيه لا يعلمه إلا الله[2].

د . فقهه في إحياء الشعوب:

إنّ حركة ذي القرنين الدعوية والجهادية جعلته يحتكُّ بالشعوب والأُمم، وتكلّم القرآن الكريم عن رحلاته:

الرحلة الأولى:

لم يحدد القرآن الكريم نقطةَ الانطلاقِ فيها، وحدّد النهايةَ إلى مغرب الشمس، ووجد عندها قوماً، فدعاهم إلى الله تعالى، وسار فيهم بسيرة العدل والإصلاح، قال تعالى:

﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا﴾ ﴿نُكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا *﴾[الكهف: 87 . 88].

إنّها سياسةُ العدلِ التي تورث التمكين في الحكم والسلطة، وفي قلوب الناس الحبَّ والتكريمَ للمستقيمين، وإدخال الرُّعب في قلوب أهل الفساد والظلم، فالمؤمنُ المستقيمُ يجدُ الكرامةَ والودَّ والقربَ من الحاكم، ويكونُ بطانتَه وموضعَ عطفه وثقته، ورعاية مصالحه، وتيسير أموره، أمّا المعتدي المتجاوز للحد، المنحرف الذي يريد الفساد في الأرض،

---

[1] فتح القدير ، للشوكاني (313/3).

[2] فقه النصر والتمكين ، للمؤلف ص (144).

فسيجدُ العذابَ الرادعَ من الحاكم في الحياة، ثم يردُّ إلى ربه يوم القيامة، ليلقى العقوبة الأنكى بما اقترفت يداه في حياته الأولى.

الرحلة الثانية:

وهي رحلةُ المشرقِ، حيثُ يصلُ إلى مكانٍ يبرزُ لعين الرائي أنّ الشمس تطلعُ من خلفِ الأُفق، ولم يحدد السياق أهو بحرٌ أم يابسةٌ، إلا أنَّ القوم ذالذين كانوا عند مطلع الشمس كانوا في أرضٍ مكشوفة، بحيث لا يحجبهم عند شروقها مرتفعات جبلية أو أشجار سامقة، وذهب الشيخ محمد متولي الشعراوي إلى أنَّ المقصود بقوله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا *﴾، هي بلاد القطب الذي تكونُ فيه الشمسُ ستة شهور، لا تغيبُ طوال هذه الشهور، ولا يوجدُ ظلام يستر الشمس في هذه الأماكن[1].

ونظرا لوضوح سياسة ذي القرنين في الشعوب التي تمكن منها، وهو الدستور المعلن في رحلة الغرب لم يكرر هنا إعلان مبادئه، لأنها منهج حياة، ودستور دولة مترامية الأطراف، وسياسة أمم، فهو ملتزم بها أينما حل وارتحل[2].

الرحلة الثالثة:

تختلف عن الرحلتين السابقتين من حيث طبيعة الأرض والتعامل مع البشر، ومن حيث الأعمال التي قام بها، فلم يقتصر فيها على الأعمال الجهادية لكبح جماح الأشرار والمفسدين، بل قام بعمل عمراني هائل، أما الأرض فوعرة المسالك، وأما السكان فكأن وعورة الأرض قد أثرت في طبائعهم، وطريقة تخاطبهم مع غيرهم.

ففي التفاهم والمخاطبة لا يكاد الإنسان منهم يقدر على التعبير عما في نفسه، ولا أن يفقه ما يحدثه به غيره من غير بني قومه: (وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا) الكهف: 93

(1) القصص القرآني من سورة الكهف ص (87).
(2) مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم ص (306).

ونلاحظ من خلال السياق القرآني أن هؤلاء القوم اتصفوا بصفات منها:

هم قوم متخلفون (لا يكادون يفقهون قولا) هذا إما معناه أنهم لا يفقهون لغة غيرهم من الأقوام الأخرى، لأنهم لم يطلعوا عليها، ولم يتعلموها، فهم منغبقون على لغتهم فقط. وإما معناه: أن الكلام لا ينفع معهم، لأنهم لا يفقهون، ولا يتفاعلون معه، ولا يتفاهمون مع قائله، لا يفعلون هذا لجفاءٍ وغلظةٍ عندهم، أو لغفلةٍ وسذاجة في طبيعتهم.

هم قوم ضعفاء، ولذلك عجَزوا عن صدّ هجمات يأجوج ومأجوج والوقوف في وجههم، ومنع إفسادهم. هم قوم عاجزون عن الدفاع عن أرضهم، ومقاومة المعتدين، ولذلك لجأوا إلى قوة أخرى خارجية، قوة ذي القرنين، حيث طلبوا منه حلَّ مشكلاتهم والدفاع عن أراضيهم.

هم قوم اتكاليون كسالى، لا يريدون أن يبذلوا جهداً، ولا أن يقوموا بعمل، ولذلك أحالوا المشكلة على ذي القرنين، وأوكلوا إليه حلّها، أما هم فمستعدون لدفع المال له[1]. لقد كان فقه ذي القرنين في التعامل مع الشعوب المستضعفة هو السعي الجاد لنقلها من الجهل والتخلف والكسل والضعف إلى العلم والتقدم والنشاط والقوة، فكان يدير العملَ بروحِ الجماعة، ويشترك بنفسه مع إشراك غيره، ويدلُّ على ذلك ضميرُ المتكلم الذي يتقابل في تسلسل متتابع رفيع مع ضمير المخاطب في النظم القرآني الكريم مما يشيرُ إلى روح الحماسة والحيوية والتعاون المشترك[2]، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا *آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا *﴾[الكهف: 95 . 96].

لقد كان ذو القرنين حريصاً على مصلحة الناس، ناصحاً لهم فيما يعود عليهم بالنفع، ولهذا طلب منهم المعونةَ الجسديةَ، لما في ذلك من تنشيط لهم، ورفع لمعنوياتهم[3]، ومن نصحه وإخلاصه لهم، أنه بذل ما في الوسع والخدمة أكثر

[1] مع قصص السابقين ، للخالدي (338/2).
[2] الحاكم والتحاكم في خطاب الوحي (627/2).
[3] أحكام القرآن، لأبي بكر بن العربي (243/3).

مما كانوا يطلبون، فهم طلبوا منه أن يجعلَ بينهم وبينَ القوم المفسدين سدّاً، أما هو فقد وعد بأن يجعل بينهم ردماً، والردم هو الحاجز الحصين، والحجاب المتين، وهو أكبرُ من السدِّ وأوثق، فوعدهم بأكثر ما يرجون[1].

لقد عفّ ذو القرنين عن أموال المستضعفين، وشرع في تعليمهم النشاط والعمل، والكسب، والسعي، فقال لهم: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا *﴾[الكهف: 95] إنّ في هذه العبارة القرآنية مَعْلَماً بارزاً في تضافر الجهود، وتوحيد الطاقات، والقدرات والقوى.

إنّ القيادة الحكيمة هي التي تستطيعُ أن تفجّرَ طاقاتِ المجتمع وتوجيهه نحو التكامل لتحقيق الخير والغايات المنشودة.

إنَّ المجتمعات البشرية غنيةٌ بالطاقات المتعددة في المجالات المتنوعة في ساحات الفكر والمال والتخطيط والتنظيم والقوى المادية، ويأتي دورُ القيادة الربانية في الأمة لتربطَ بين كلِّ الخيوط والخطوط والتنسيق بين المواهب والطاقات، وتتجه بها نحو خير الأمة ورفعتها.

إنّ أمّتنا الإسلامية ملىء بالمواهب الضائعة والطاقات المعطلة والأموال المهدرة والأوقات المتبددة، والشباب الحيارى، وهي تنتظر من قيادتها في كافّة الأقطار والدول والبلاد لكي تأخذَ بقاعدة ذي القرنين في الجمع والتنسيق والتعاون ومحاربة الجهل والكسل والتخلف[2].

إنّ ذا القرنين لم يكن موقفه مع المستضعفين حمايتهم، وإنما توريثهم أسبابَ القوة حتى يستطيعوا أن يقفوا أمام المفسدين، لقد كان ذو القرنين يستطيعُ أن يبقى حتّى يبدأ يأجوج ومأجوج في الهجوم، ثم يهاجم ويهزمهم، ولكنّ الله سبحانه وتعالى يريدُ أن يلفتنا إلى أنّه ليس من وظيفة الحاكم أو الملك أن يظلَّ في انتظار هجوم الظالم، ولكن وظيفته منع وقوع الظلم.

---

[1] روح المعاني (40/16).

[2] مع قصص السابقين (342/2).

ولم يأتِ ذو القرنين بجيوشٍ لحماية المستضعفين مع قدرته على ذلك، وإنّما طلب منهم أن يعينوه ليساعدهم على حماية أنفسهم، ويتعلّموا فنونَ الحماية، ويكسبوا خبرات، ويتدرّبوا على العمل الجاد المثمر، فيبنون السدَّ بأيديهم، وهذا أدعى للحفاظِ عليه، وإصلاحِهِ إنْ أصابه شيءٌ.

إنّ ذا القرنين رفضَ أن يكونَ هؤلاء المستضعفون عاطلين، وهذا يلفتنا إلى أنّ عطاءَ الله سبحانه وتعالى عطاءُ إمكانات، وعطاءٌ ذاتي في النفس.. عطاءُ الإمكانات هو ما تستطيع أن توفّره من وسائل تعينك على أداء العمل، والعطاء الذاتي في النفس هو القوة الذاتية داخلك، التي تعطيك طاقة العمل، وكثيرٌ منّا لا يلتفت إلى عطاء النفس.. لا يلتفتُ إلى أنّه فيه قوة يستطيع أن يعمل بها أعمالاً كثيرة، وأنّه لا يستخدمها، وأنّ لديه قوة تحمّل بإمكانه أن ينتقل من مكانٍ إلى اخر.. وأن يعملَ أعمالاً كثيرة[1].

إنَّ ذا القرنين لم يستعن بجيشه ولا بأناس اخرين، إنَّما استعان بهؤلاء الضعفاء وطلب منهم أن يأتوه بالحديد، ثم بناء السدّ، بحيث وصل به إلى قمة الجبلين، ثم قام بصهر الحديد، وأفرغ عليه النحاس، ليكون السد في غاية المتانة والقوة.

إذن فهو قوّى هؤلاء الضعفاء الذين كان يهاجمهم يأجوج ومأجوج، بأنْ علّمهم كيف يعينون أنفسهم، وكيف يبنون السد، وجعلهم هم الذين يشتركون في البناء، وهم الذين يقيمونه، وأعانهم هو بخبرته وعلمه فقط، ليأخذوا الثقة في أنفسهم بأنهم يستطيعون حماية أنفسهم، وليتعلّموا ما يعينهم ويحميهم، والإسلام ينهانا أن نعوّد الناس على الكسل، أو نعطيهم أجراً بلا عمل، لأنّ ذلك هو الذي يفسِدُ المجتمع، فالإنسانُ متى تقاضى أجراً بلا عمل لا يمكن أن يعمل بعد ذلك أبداً[2].

إنّ ذا القرنين قام بمهمّة الحاكم الممكَّن له في الأرض، فقوّى المستضعفين، وجعلهم قادرين على حماية أنفسهم من العدوان، فلا يعتمدون على حماية أحد، ولم يترك الناس في مقاعد المتفرجين، بل نقلهم إلى ساحة العاملين، فعندما تحرّك القومُ المستضعفون نحو العمل بقيادة ذي القرنين، وصلوا إلى هدفهم المنشود، وغايتهم المطلوبة[3].

---

[1] القصص القراني في سورة الكهف ، لمحمد متولي الشعراوي ص (93).
[2] القصص القراني في سورة الكهف ص (94).
[3] فقه النصر والتمكين ص (150).

ونقف مع ذي القرنين بعد أن أتمَّ بناء السد:

نظر ذو القرنين إلى العمل الضخم الذي قام به، فلم يأخذه البطر والغرور، ولم تُسْكِرْه نشوةُ القوةِ والعلمِ، ولكنّه ذكر الله فشكره، وردَّ إليه العملَ الصالح الذي وفّقه إليه[1].

ذكر ذي القرنين لربه عند إنجاز عمله يعلّمنا كيف يكونُ ذكرُ الله سبحانه، فإنَّ مِنْ أعظمِ صور الذكر، هي أن يذكر العبدُ ربَّه عند توفيقه في عملٍ، فيستشعر أنّ هذا بأمرِ ربّه، فيتواضع ويعدل، ويذكر، ويشكر.

كان بناءُ السدِّ رحمةً من الله تعالى، وقد استخدم ذو القرنين علمَه الذي علّمه الله إياه، وتمكينه الذي مكّنه الله له، استخدمه في مساعدةِ الناس، وتقديم الخير لهم، ومنع العدوان عنهم، فكان علمُه رحمةً من ربه، وكان استخدامه له رحمةً من ربه.

كان القوم مهدّدين بيأجوج ومأجوج، معرّضين لإفسادهم، ولم يحمهم منهم إلا الله ببناء السد، فكان السدُّ رحمة من الله لهم، وكان خلاصاً لهم وإنقاذاً بإذن الله، فلو لم يتمَّ عملٌ ولا جهدٌ ولا حركةٌ، لما انقذوا أنفسهم من الخطر، لأنَّ الإنقاذَ لا يتمُّ إلا بالعمل والجهد المتواصل وتكاتف الجهود والانقياد الطوعي للشعوب لشرع الله خلف القيادة الربانية[2] ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا *﴾ [الكهف 98].

هـ إحاطة الله علماً بذي القرنين وجيشه:

قال تعالى: وقبل أن يكملَ القرآن الحديثَ عن حروب ذي ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا *﴾، وفتوحاته؛ وقبل أن يتحدَّث عن مهمته في المنطقة الشمالية، توقّف سياقُ القرآن الكريم ليقرّرَ حقيقةً أساسيةً، وهي قوله تعالى: أي إنّ الله سبحانه كان عالماً بأحوال ذي ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا *﴾، مطّلعاً على حركاته، محيطاً بأخباره وأخبار جيشه، فلا يسيرون خطوةً إلا بإذن الله، ولا يتحرّكون حركةً إلا بمشيئة الله، ولا يكسبون معركةً أو يحتلّون بلداً إلا والله عالم بهم، مطّلع عليهم، خبيرٌ بهم، ونقف لنسأل عن الحكمةِ عن ذكر حقيقة إحاطة الله بأخبار ذي القرنين وجيشه

---

[1] في ظلال القران (2293/4).
[2] مع قصص السابقين (350/2).

وعلمه بها أثناء حديثه عن فتوحاته؟ إنَّ الحكمةَ التي قد تبدو لنا هي حرصُ القرآن على ربط كلّ ما يحدث في الكون بإرادة الله ومشيئته وعلمه سبحانه، حتى لا ينسى الناسُ هذه الحقيقة، وهم يتابعون الأحداث، وحتى لا يظنّوا أنّ الناس يتحرّكون بها بقدراتهم الذاتية، بمعزلٍ عن علم الله وإذنه، فها هو ذو القرنين قام بفتوحات عظيمة في الجبهة الغربية، ثم في الجبهة الشرقية، وقام بإنجازاتٍ عظيمة في الجبهة الشمالية، لكنّ الله مطّلعٌ على أعماله، محيطٌ بأخباره، عالمٌ بإنجازاته، وهو مقدّر لها، ومريدٌ لها سبحانه[1].

إنّ قصة ذي القرنين تدلُّ على وجوب الأخذ بالأسباب، وبيان أنّ ذلك ضروري للنهوض الحضاري للأمم، وقد قدّم القرآن الكريم (ذا القرنين) أنموذجاً ممثِّلاً ربطَ الأسباب بالمسببات، والمقدمات بالنتائج، واعتبر ذلك مقدمةً لابدّ منها للنهوض والإنجاز الحضاري، وبذلك لم يكتفِ القرآن الكريم بتأكيد موضوع السنن والأسباب نظرياً، لقد مكن الله له في الأرض، فأعطاه سلطاناً وطيدَ الدعائم، ويسّرَ له أسبابَ الحكم والفتح، وأسبابَ البناء والعمران، وأسبابَ السلطان والمتاع، وسائرَ ما هو من شأنِ البشر أن يمكّنوا فيه في هذه الحياة ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا *﴾ [الكهف 85].

إنّ قصة ذي القرنين من قصص القرآن التي يتمثّل بها من الدلالة على القدرة الفائقة لأصحابها، ومدى ما كانوا عليه من قوة وتمكين، ولكن بواسطةِ ما سنّه الله من أسبابٍ في هذا الكون ووسائل تؤدّي إلى غاياتها المراد منها، لتمثّل بذلك أنموذجاً لكلِّ مسلم يريدُ أن يسلكَ في هذه الحياة على هدي من الفهم لسنن الله في الخلق، وليتقين كلُّ أحدٍ أنَّ التمكين في الأرض والسعادة في الاخرة، إنّما يتحصّل بأسبابٍ ووسائط، سواء المادي منها والمعنوي، ممّا تحق به ذو القرنين[2].

و ـ أخلاقه القيادية:

إنّ شخصيةَ ذي القرنين تميّزتْ بأخلاقٍ رفيعة ساعدته على تحقيقِ رسالته الدعوية والجهادية في الحياة، ومن أهمِّ هذه الأخلاق:

---

(1) المصدر نفسه (325/2).

(2) السنن الإلهية في الأمم والأفراد ، د. مجدي محمد عاشور ص (166).

- **الصبر**: كان جلداً صابراً على مشاقّ الرحلات، فتلك الحملات التي كان يقوم بها تحتاج إلى جهود جبارة في التنظيم والنقل والتحرّك والتأمين، فالأعمالُ التي كان يعملها تحتاج إلى جيوش ضخمة، وإلى عقلية يقظة، وذكاء وقاد، وصبر عظيم، والات ضخمة، وأسباب معينة على الفتح والنصر والتملك[1].

- **المهابة**: كانت له مهابةٌ ونجابةٌ يستشعرها مَنْ يراه لأول مرة، ولكنّها ليست مهابة الملوك الظلمة الجبارين، فعندما بلغ بين السدين، ووجد القومَ المستضعفين، استأنسوا به، ووجدوا فيه مخلصاً من الظلم والقهر الواقع عليهم، فبادروه بسؤال المعونة، فمن الذي أدراهم بأنّه لن يكونَ مفسِداً من المفسدين أو ظالماً من الظالمين، ومعه من القوة والعدة ما ليس لمثلهم؟![2].

- **الشجاعة**: كان قويَّ القلبِ، جسوراً، غيرَ هيّابٍ من التبعات الضخمة والمسؤوليات العظيمة إذا كان في ذلك مرضاة الله سبحانه، فإنّ ما طلب من إقامة السد كان عملاً عظيماً في ذاته، حيث إنَّ القوم المفسدين كان من الممكن أن يوجّهوا إفسادَهم إليه وإلى جنوده، ولكنّه أقدم وأقبل غيرَ متأخّر ولا مُدْبرٍ[3].

- **التوازن في الشخصية**: فلم تؤثر شجاعته على حكمته، ولم ينقص حزمه من رحمته، ولا حسمه من رفقه وعدالته، ولم تكن الدنيا كلها ـ وقد سخرت له ـ كافيةً لإثنائه عن تواضعه وطهارته وعفته.

- **كثرة الشكر**: لأنه كان صاحبَ قلبٍ حيٍّ موصولٍ بالله تعالى، فلم تسكره نشوةُ النصر وحلاوةُ الغلبة بعدما أذلَّ كبرياء المفسدين، بل نسب الفضل إلى ربّه سبحانه وقال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾[الكهف: 98][4].

- **العفة**: كان مترفعاً عن مالٍ لا يحتاجه، ومتاعٍ لا ينفعه، فإنَّ القوم المستضعفين لما شكوا إليه فساد المفسدين، عرضوا عليه الخراج، فأجابهم بعفة وديانة وصلاح: إنّ الذي أعطاني الله مِنَ الملك والتمكين خيرٌ لي من الذي تجمعونه، وما أنا فيه خيرٌ من الذي تبذلونه[1].

---

[1] الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (624/2).
[2] المصدر السابق (624/2).
[3] الحكم والتحاكم (624/2).
[4] المصدر نفسه (627/2).

إنَّ التوازنَ المدهشَ والخلاّبَ في شخصية ذي القرنين سببه إيمانه بالله تعالى واليوم الاخر، ولذلك لم تطغَ قوتُهُ على عدالته، ولا سلطانهُ على رحمته، ولا غناهُ على تواضعهِ، وأصبح مستحقّاً لتأييد الله وعونه، ولذلك أكرمه الله تعالى بالأخذ بأسباب التمكين والغلبة، وهو تفضُّلٌ من الله تعالى على عبده الصالح، فجعل له مكنة وقدرة على التصرّف في الأرض من حيث التدبير والرأي وكثرة الجنود والهيبة والوقار(2).

وكذلك أكرمه الله بكثرة الأعوان والجنود، وقذف الرعبَ في قلوب الأعداء، وتسهيلِ السير عليه، وتعريفِهِ فجاجَ الأرض، واستيلائه على بَرّها وبحرها(3)، وتمكنه بذلك من تملُّك المشارق والمغارب من الأرض، فكلُّ هذه الأمور لا تُعطى لشخصٍ عادي، ولا يمكن أن يحقّقها حاكمٌ بحوله وقوته وذكائه مهما بلغ، إلا أن يكونَ مؤيّداً من الله، ذلك التأييدُ الذي ينصر الله به عباده المؤمنين، ويدلُّ على هذه العناية أيضاً ضميرُ العظمة في قوله:

﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا *﴾[الكهف: 84]، أي: أمدّه بكل ما أراده من مهمات ملكه ومقاصده المتعلقة بسلطانه، فزوّده بعلم منازل الأرض وأعلامها، وعرّفه ألسنة الأقوام الذين كان يغزوهم، فكان لا يغزو قوماً إلا كلّمهم بلسانهم(4).

لقد أعطاه الله تعالى من كلِّ شيءٍ سبباً، وينصرفُ ذهنُ السامع أو القارئ إلى وجوه التمكين له في الأرض، وأسبابه من العلوم والمعرفة، واستقراء سنن الأمم والشعوب صعوداً وهبوطاً، وفي سياسة النفوس أفراداً وجماعات تهذيباً وتربيةً وانتظاماً، وأعطاه من أسباب القوّة من الأسلحة والجيوش وأسباب القوة والمنعة والظفر، وأسباب العمران وتخطيط المدن وشقّ القنوات وإنماء الزراعة، وقيل: مهما تصوّر من أسباب التمكين التي تليق برجل رباني قد مُكّن له في هذه الأرض(5). يمكن أن يدخل تحت قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا *﴾ [الكهف 84].

---

(1) المصدر نفسه (625/2).

(2) روح المعاني (30/16).

(3) البحر المحيط (159/6).

(4) روح المعاني (31/16).

(5) مباحث في التفسير الموضوعي ، مصطفى مسلم ص (304).

لقد كانت رعايةُ الله تعالى لذي القرنين عظيمةً، بسبب إيمانه بالله تعالى، واستعداده لليوم الآخر، ولذلك فُتِحَ له بابُ التوفيقِ وِفْقَ ما سعى إليه من أهدافٍ وغايةٍ سامية.

لقد بذل ذو القرنين ما في وسعه من أجل دعوةِ الناس إلى عبادة الله، فقد جمع بين الفتوحات العظيمة بحد السيف، وفتوحات القلوب بالإيمان والإحسان، فكان إذا ظفر بأمةٍ أو شعبٍ دعاهم إلى الحق والإيمان بالله تعالى قبل العقاب أو الثواب، وكان حريصاً على الأعمال الإصلاحية في كافة الأقاليم والبلدان التي فتحها، فسعى في بسط سلطان الحق والعدالة في الأرض شرقاً وغرباً، وكان صاحبَ ولاءٍ ومحبةٍ لأهل الإيمان، مثلما كان معادياً لأهل الكفران[1].

2 . الأسباب التي اتخذها داود عليه السلام للتمكين لدين الله:

قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ *﴾ [البقرة 251] بين القرآن الكريم أنّ داود عليه السلام كان مجاهداً في جيش طالوت، وممّن نجحوا في الامتحان العسير الذي قرر رئيس الجيش طالوت أن يخوضه هو وجميعُ جنوده، فسقط مَنْ سقط، ونجح من نجح، فقد رفع داود عليه السلام رايةَ النصر، وشرع في إعادة التمكين لبني إسرائيل بعد قتله لجالوت، وكان إذ ذاك فتًى، وتمَّ له الظفر، فالتقت على محبته القلوب، وتأكدت له أوامر الإخلاص، وأصبح بين عشية وضحاها حديثَ بني إسرائيل، يكنّون له في نفوسهم الاحترام والمحبة، والتوقير.

ومنذ ذلك الحين بدأ نجمُه يصعد في السماء، ويتنقل من ظفر إلى ظفر، ويجيئه النصر يتبعه النصر، حتى وليَ الملكَ أخيراً، وأصبح ذا سلطانٍ، وظهرت ملامحُ الحكم في زمنه في عدله وحكمه، وكان أوّاباً رجَّاعاً إلى ربه بالطاعة والعبادة، والذكر والاستغفار.

لقد كان منهجُ التغيير في زمن داود عليه السلام هو الصراعُ المسلّح بين قوى الخير والشر والإيمان والكفر، والهدى والضلال، وبالفعل تم دمغُ الباطل وإضعافُه، ووصل بنو إسرائيل إلى قمة مجدهم وعزهم،

[1] الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (623/2).

قال تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ *إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ *وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ *وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ *﴾[ص: 17 . 20].

أ . أخلاقه القيادية:

إنّ المتأملَ في القرآن الكريم في قصة داود عليه السلام يتعرّفُ على صفات الحاكم المؤمن الذي مكن الله له، وهي تحقق للقائد المسلم كمالَ السعادةِ في الدنيا والآخرة، ومن أهم هذه الصفات:

- **الصبر**: فقد أمر الله تعالى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على جلالة قدره بأن يقتديَ به في الصبر على طاعة الله.
- **العبودية**: وقد وصفه ربُّه بقوله: وعبّر عن نفسه بصيغة الجمع ﴿عَبْدَنَا﴾، والوصف بالعبودية لله غاية التشريف، كوصف محمد صلى الله عليه وسلم بها ليلة الإسراء والمعراج ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾[الإسراء: 1].

وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا ذُكِرَ داود عليه السلام تحدّث عنه، وبيَّن فضله واجتهاده في العبادة: «إنَّ أحبَّ الصيامِ إلى اللهِ صيامُ داودَ، وأحبَّ الصلاة إلى الله صلاةُ داود عليه السلام: كان ينامُ نصفَ الليل، ويقومُ ثلثَه، وينامُ سدسَه، وكان يصومَ يوماً، ويفطِرُ يوماً»(1).

- **القوة على أداء الطاعة**: والاحتراز عن المعاصي في قوله تعالى: ﴿ذَا الأَيْدِ﴾
- **الرجوع إلى الله بالطاعة في أموره كلها**: في قوله تعالى: وصف بالقوة على طاعة ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ *﴾، وبأنه أواب دليل على كمال معرفته بالله التي جعلته يجتهدُ في العبادة على نهجٍ ربانيٍّ صحيح.
- **تسبيح الجبال والطيور معه**:

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ *وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ *﴾[ص: 18 . 19] أي إنّه تعالى سخر الجبال تسبّحُ مع داود عندَ إشراق الشمس واخر النهار، كما قال: ﴿يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾[سبأ: 10]، قال ابن كثير: وكذلك الطير تسبّح بتسبيحه، وترجّع بترجيعه، إذا مرَّ به الطير، وهو سابحٌ في الهواء، فسمعه، وهو يترنم

(1) مسلم رقم (189).

بقراءة الزبور، لا يستطيع الذهاب، بل يقف في الهواء ويسبّحُ معه، وتجيبه الجبال الشامخات، وترجّع معه، وتسبّح تبعاً له[1].

- **قوة الملك:** ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ [ص: 20] أي: قوّينا ملكه بالجند أو الحرس، وجعلنا له ملكاً كاملاً في جميع ما يحتاج إليه الملوك.
- **الحكمة:** ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾[ص: 20] أي: أعطيناه الفهم والعقل والفطنة، والعلم، والعدل، وإتقان العمل، والحكم بالصواب.
- **حسن الفصل في الخصومات:** ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ *﴾[ص: 20] أي وألهمناه حُسْنَ الفصل في القضاء، بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإيجاز البيان، بجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل[2].

إنّ داود عليه السلام شدَّ ملكَه بالتسبيح والذكر والطاعة، فكان عليه السلام يسبّحُ بالعشي والإشراق، وتجاوبت الجبالُ مع ذكره العذب الجميل، وكذلك تجاوبتِ الطيورُ، قال تعالى:

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ *﴾ [18] فوهبه الله هبة عظمى ذكرها في كتابه عز وجل: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ *﴾[ص: 20] الذي جعلنا له ملكاً كاملاً من جميع الملوك العظماء، بحيث لا يتمكّنُ منه أعداؤه لكثرة جيوشه، وكثافة حرّاسه الذين قيل: إنّهم كانوا ألوفاً كثيرة يتناوبون في حراسته، ولم ينكسر له جيش في معركة أبداً بعون الله ونصره[3].

ب ـ استخلاف الله تعالى لداود عليه السلام:

قال تعالى: ﴿يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ *﴾ [ص: 26] خاطب الله تعالى داود عليه السلام بأنْ جعله حاكماً بين الناس في الأرض، فله الحكم والسلطة، وعليهم السمع والطاعة، ثم بين الله تعالى له قواعدَ

---

(1) تفسير ابن كثير (29/4).
(2) تفسير المنير ، لوهبة الزحيلي (183/23 ـ 185).
(3) تفسير القرطبي (162/15).

الحكم تعليماً لغيره من الناس ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ فاقضِ بين الناس بالعدل، الذي قامت به السماوات والأرض، وهذه أُولى وأهمّ قواعد الحكم أي: ﴿وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى﴾ تَمِلْ في الحكم مع أهواء نفسك، وبسبب مطامع الدنيا، فإنّ اتّباعَ الهوى مزلقةٌ ومدعاةٌ إلى النار، لذا قال: أي: إنّ اتباع الهوى سببٌ في الوقوع في ﴿فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، والانحراف عن جادة الحق، وعاقبته الخذلان، قال تعالى: أي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ *﴾ الذين يتنكّبون طريقَ الحق والعدل لهم عقابٌ شديدٌ يوم القيامة، والحساب الأخروي بسبب نسيانهم أهوال ذلك اليوم، وما فيه من حساب شديد دقيق لكل إنسان، وبسبب تركهم العمل لذلك اليوم، ومنه القضاء بالعدل[1].

ج ـ هبةٌ من الله مباركةٌ وفتحٌ وإلهامُ:

إنَّ داود عليه السلام كان له كثيرٌ من الأبناء والأولاد إلا أنَّ الله خَصّه بالابن الصالح النبي الملك سليمان عليه السلام، وأثنى الله عليه في كتابه بكونه أوّاب إلى الله عز وجل، كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله عز وجل في أكثر الأوقات، ومن مزيدِ فضل الله على عبده داود أنْ وهبه سليمان، الذي ورثَ عن أبيه المُلْكَ والنبوّة، قال تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ *﴾ [ص، 30] .

لقد أكرم الله تعالى سليمان عليه السلام بالملك والنبوة، وأعطاه الفهمَ الثّاقب، والرأي السديد، ورجاحة العقل، ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ *فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ *﴾ ﴿وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[الأنبياء: 78 ـ 79].

د ـ ابتكارٌ في صناعة الأسلحة:

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ *﴾[الأنبياء: 80]، كان داود عليه السلام أوّلُ من اتخذ الدروع وصنعها، وتعلّمها الناسُ منه، وإنّما كانت صفائح، فهو أول مَنْ سردها وحلّقها،

---

[1] فقه النصر والتمكين ص (126).

فأصبحت النعمةُ عليه نعمةً على جميع المحاربين على الدوام أبد الدهر، فلزمهم شكر الله تعالى على النعمة، وذلك يقتضي الشكر، لذا قال تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ﴾ ﴿شَاكِرُونَ *﴾[الأنبياء: 80] أي: على تيسير نعمة الدروع لكم، وأن تطيعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أمر الله به، والمراد: اشكروا الله على ما يسّر عليكم من هذه النعمة، وهذا دليل على جواز اتخاذ الصنائع والأسباب، فالسببُ سنةُ الله في خلقهِ، وهي شهادةٌ للعمال وأهلِ الحرف والصَّنائع بأنَّ العمل شرفٌ، واتّخاذ الحرفة كرامةٌ، وهذه الآية فيها إشارة لحثّ أهل الإيمان على العمل والإبداع، والأخذ بأسباب النصر على الأعداء ومحاربة الفساد بإعدادِ الجيوش مقودة بقيم الإيمان وتعاليم الرحمن، وشريعة الديان، قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *﴾[سبأ: 10 . 11].

وكانت هذه هبةُ الله فوقَ الملك والسلطان مع النبوة والاستخلاص، إنّ الله تعالى أنعم على عبده داود بتسييل الحديدِ له، أو تعليمه كيف يسيل الحديد الذي هو مادّةُ الإعمار والبناء والتصنيع، ولا شكَّ في خطورة مادة الحديد في صناعة الحضارات، وبناء الدول، وفي حَسْمِ انتصارات الجيوش[1].

وفي سورة الحديد نقرأُ هذه الآية: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ *﴾ [الحديد: 25].

هل ثَمّةَ أكثر دِلالةً على ارتباط المسلم بالأرض من التحضير والإبداع والبناء التي جاء الإسلام لكي يجعلها جزءاً أساسياً من أخلاقيات الإيمان وسلوكياته في قلب العالم من هذه الآية التي تعرض خام الحديد كنعمةٍ كبيرةٍ أنزلها الله لعباده، وتعرض معها المسألة في طرفيها اللذين يتمخّضان دوماً عن الحديد (البأس الشديد) متمثلاً باستخدام الحديد كأساسٍ للتسلح والإعداد العسكري و(المنافع) التي يمكن أن يحظى بها الإنسانُ من هذه المادة الخام في كافة مجالات نشاطه وبنائه السلمي؟ وهل ثَمَّةَ حاجةٍ للتأكيد على الأهمية المتزايدة للحديد بمرور الزمن في مسائل السلم والحرب، وأنه غدا في عصرنا الراهن هذا وسيلةً من أهم الوسائل في ميادين القوى الدولية سلماً وحرباً؟!

---

[1] فقه النصر والتمكين ص (129).

إنَّ الدولةَ المعاصرةَ التي تمتلك خام الحديد تستطيعُ أن تُرْهِبَ أعداءها بما يتيحه لها هذا الخام من مقدرة على التسلُّح الثقيل... وتستطيع أيضاً أن تخطوَ خطواتٍ واسعةٍ لكي تقفَ في مصافّ الدول الصناعية العظمى التي يشكّل الحديدُ العمودَ الفِقْري لصناعاتها وغناها[1].

إنّ الله سبحانه وتعالى منحَ الحديد لداود عليه السلام، وعلّمه كيف يُليّنه، لأنّ الفائدةُ تتحقّق بوجود الحديد الخام، والقدرة على تشكيله، ولا شكَّ أنَّ ذلك ساعدَ على بناء حضارة عظيمة جمعت بين المنهج الرباني والتطور العمراني والصناعي... إلخ.

وإذا تأملنا في آية الحديد [25] نجدُ تداخلاً عميقاً وارتباطاً صميماً بين آية الحديد، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب معهم، وإقامة الموازين الدقيقة لنشر العدل بين الناس، وبين إنزال الحديد الذي يحمل في طياته (البأس)، ثم التأكيد على أنَّ هذا كلّه إنما يجيءُ لكي يعلم الله مَن ﴿يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ *﴾[الحديد: 25].

إنَّ المسلم الرباني لن تحميه بعد قدرة الله إلا يده المؤمنة التي تعرفُ كيف تبحث عن الحديد وتشكله وتستخدمه من أجل حماية الإسلام والتقدم به وتحقيق النصر للمؤمنين وإقامة شرع الله في مناحي الحياة.

إن قول الله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ *﴾[سبأ: 10] فيه إشارةٌ إلى أهمية هذا المعدن الخام وتوظيفه لخدمة الإنسانية في طاعة الله.

3 . الأسباب التي اتخذها سليمان عليه السلام للتمكين لدين الله:

تسلَّم سليمان عليه السلام قيادةَ الدولة القوية التي أسست على الإيمان والتوحيد وتقوى الله تعالى، لقد أُوتي سليمان عليه السلام المُلكَ الواسعَ، والسلطانَ العظيمَ، بحيث لم يؤتَ أحدٌ مثلما أوتي، ولكنّه أُعطِي قبل ذلك عطاءً أعظمَ وأكرمَ، هيأه لأن يكونَ شخصيةً فريدةً متميزة في التاريخ، لقد أُعطي النبوةَ، ومُنِحَ العلم، وأوتي الحكمةَ، وذلك مثلما أعطي أبوه من قبل[2].

---

[1] التفسير الإسلامي للتاريخ ، عماد الدين خليل ص (221 ـ 222).

[2] فقه النصر والتمكين ص (130).

أ. بداية التمكين:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالاَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ *وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ *﴾[النمل: 15 . 16]

بدأ التمكين بتلك الإشارة ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾، وقبل أن تنتهي الآية يجيءُ شكرُ داود وسليمان على هذه النعمة، وإعلانُ قيمتها وقدرها العظيم، فتبرز قيمةُ العلم، وعظمةُ المنّة به من الله على العبادِ، وتفضيل مَنْ يؤتاه على كثيرٍ من عباد الله المؤمنين، ولا يذكر هنا نوع العلمِ وموضوعه، لأنّ جنسَ العلم هو المقصود بالإبراز والإظهار، وللإيحاء بأنّ العلمَ كلّه هبةٌ من الله، وبأنّ اللائق بكلِّ ذي علم أن يعرفَ مصدره، وأن يتوجّه إلى الله بالحمد عليه، وأن ينفقه فيما يرضي الله الذي أنعم به، وأعطاه، فلا يكونُ العلمُ مُبعِداً لصاحبه عن الله، ولا مُنْسِياً له إياه، وهو بعض مننه وعطاياه.

وبعد الإشارة إلى الإنعام بمنة العلم على داود وسليمان، وحمدهما لله ربهما على منّته، وعرفانهما بقدرها وقيمتها، يفرِدُ سليمانَ بالحديث: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ *﴾[سبأ: 16].

ب. فقه سليمان عليه السلام في إدارة الدولة:

إنّ القصص القرآني في سيرة سليمان عليه السلام أشار إلى أساليبه في إدارة الدولة، والمحافظة على التمكين، وأهم هذا الفقه يظهر في النقاط الآتية:

دوام المباشرة لأحوال الرعية، وتفقد أمورها، والتماس الإحاطة بجوانب الخلل في أفرادها وجماعاتها، فهذا كان حال سليمان عليه السلام ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾[النمل: 20] وذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمور الملك، والاهتمام بكل جزءٍ فيه، والرعاية بكلِّ واحدةٍ فيها وخاصّةً الضعفاء[1].

---

[1] تفسير القرطبي (177/13).

ولا شك أنّ القيادةَ تحتاجُ إلى لجانٍ ومؤسساتٍ وأجهزةٍ حتى تستطيعَ أن تقومَ بهذه المهمة العظيمة. إنَّ سليمان كان مهتماً بمتابعة الجند وأصحابِ الأعمالِ، وخاصّةً إذا رابَه شيءٌ في أحوالهم، فسليمانُ عليه السلام لما لم ير الهدهدَ بادر بالسؤال يعني هو ﴿ مَالِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ ﴾ كأنّه يسأل عن صحة ما لاح له[1]،

ثم قال: ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ *﴾[النمل: 20] سؤال اخر ينمُّ عن حزمٍ في السؤال بعد الترفق، فسليمان عليه السلام أراد أن يفهم منه أنه يسأل عن الغائب لا عن شفقةٍ فقط، ولكن عن جِدٍّ وشدّةٍ، إذا لم يكن الغياب بعذر[2].

لا بد للدولة من قوانين حتى تضبط الأمور بحيث يعاقب المسيء، ويحسن للمحسن، ولا بدّ من مراعاة التدرج في تقرير العقوبة، وأن تكونَ على قدر الخطأ وحجم الجرم، وهذا عينُ العدالة، ولهذا لم يقطع سليمان عليه السلام بقرار واحد في العقاب عند ثبوت الخطأ، بل جعله متوقّفاً على حجم الخطأ ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ﴾

[النمل: 21] وقد استدلَّ أهلُ العلم بهذه الآية على أنّ العقابَ على قدر الذنب، وعلى الترقّي من الشدة إلى الأشد قدر ما يحتاجه إلى إصلاح الخلل[3].

الاهتمام بالأجهزة الأمنية، لا بدّ للدولة المسلمة أن تهتمَّ بالأجهزة الأمنية، وتحرص أشدَّ الحرص على الاهتمام بالأخبار والمعلومات، حتى توظَّفَ لخدمة الدين، وعقيدة التوحيدِ، ونشرِ المبادئ السامية، والأهداف النبيلة، والمثل العليا، وأن تحرصَ على تحبيب الجهاد لأبنائها، بواسطة الأجهزة الإعلامية والوسائل التربوية، وأن تهيِّءَ النفوس للظروف المناسبة لإقامةِ الدين، وإعلاء كلمة الله، وهكذا كان شأن سليمان عليه السلام. كما قال القرطبي رحمه الله: فإنّما صار صِدْقُ الهدهد عذراً له، لأنَّه أخبر بما يقتضي الجهاد، وكان سليمان عليه السلام قد حُبِّبَ إليه الجهاد[4].

---

(1) تفسير الرازي (189/24).

(2) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (593/2).

(3) المصدر نفسه (593/2).

(4) تفسير القرطبي (189/13).

الاهتمام بنصر دعوة التوحيد: ولا بدّ للقيادة في الدولة المسلمة أن تهتمَّ بنصر دعوة التوحيد، وبذل الوسع في تبليغها لكل مكلف، فإنَّ سليمان عليه السلام لما استمع إلى خبر القوم المشركين، شمّر عن ساعد الجد لإيصال البلاغ إليهم، وبدأ معهم بالحجة والبيان. قال تعالى: ﴿اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ *﴾ [النمل: 28].

قال القرطبي رحمه الله: في هذه الآية دليلٌ على إرسال الكتب إلى المشركين، وتبليغهم الدعوة، ودعائهم إلى الإسلام، وقد كتب النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر وإلى كل جبّار[1].

ولقد كان كتاب سليمان عليه السلام لملكة سبأ يبدأُ بالرحمة، وتتخلله الكرامة، وآخره الدعوة إلى الاستجابة لله، والاستسلام له سبحانه ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ *أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ *﴾ [النمل: 30 . 31].

الترفُّع على حطام الدنيا: فملكة سبأ عندما أعملت الحيلة لاختبار سليمان عليه السلام، تفتّقَ ذهنُها عن بعث هديةٍ له تمتحِنُ بها حبه للدين، فأظهرَ عدم الاكتراث بهذا المال، وأعلمَ من جاؤوا به أنّ الله تعالى اتاه الدين الذي هو السعادة القصوى، واتاه من الدنيا ما لا مزيدَ عليه، فكيفَ يُستمال مثلُه بمثل هذه الهدية، وصارحهم بأنّهم هم الذين من شأنهم الفرح بتلك الهدية، التي ظنّوا أنه سيفرحُ بها، أما هو فلن يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف[2]، قال تعالى: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ﴾ ﴿بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ *﴾[النمل: 36].

المقدرةُ على اتخاذ القرار الصحيح في الوقت المناسب للمكان المناسب، وعدم التردد في القرار الصعب للتغلب على الحال الأصعب، فعندما وجد سليمان عليه السلام أنَّ القوم مازالوا على الشرك، بل يريدون استمالته وتنحيته عن صلابته في الحق، قال للوفد الذي جاء بالهدية: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لاَ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ *﴾[النمل: 37] ولا مانع من ركوب الشدة مع المعاند، واستعمال القوة في إرهاب من يصد عن الدعوة، فإنّ

---

[1] المصدر نفسه (190/13).

[2] الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (598/2)

ذلك قد لا ينفعُ غيره في إنقاذِ الناس من الشرك، بل من المعادن البشرية ما لا يلينُ إلا تحتَ وهج السيف وسنابك الخيل، وكان هذا الأسلوبُ سبباً في إسلام ملكة سبأ، وانقيادها وجنودها لسليمان، ولا مانع من استعمال الذكاء والعقل النير، ودقة التدبير، في استجلاب قلوب المدعوين إلى الدين، واستخدام نعم الله في دلالة الخلق على الله، ومخاطبة الناس بالكيفية التي تستهوي قلوب عوامهم، وتجلب احترام خواصهم، فسليمان عليه السلام لما بلغه خبرُ مجيء ملكة سبأ في جمعٍ من حاشيتها وجنودها، أراد أن يُعْلِمَها مدى ما أعطاه الله من قوة، حتى إنّ عرشها الذي تركته في حماية عظيمة وحرس كثيف سبقها إليه[1].

الاستفادة من المهارات والمواهب: وعلى الدولة المسلمة أن تستفيدَ من المهاراتِ والمواهبِ وإمكانات الخاصة في أفراد الرعية، ووضع الفرد المناسب في مكانه الصحيح، إنّ مملكة سليمان عليه السلام كان فيها من الإنس والجن وغيرهم ما كان يمكن أن يؤدّي مهمة الهدهد، ولكنّ سليمان عليه السلام اختاره مع ضعفه وصغره لتأدية هذه المهمة، فتخصيصه عليه السلام إيّاه بالرسالة دون سائر ما تحت ملكه من أمناء الجن الأقوياء على التصرف والتعرف، لما عاين فيه من مخايل العلم والحكمة[2].

ج . صفاته القيادية:

إنّ الآيات الكريمة عرضت صفات سليمان عليه السلام كملك وحاكم مُمَكَّنٍ له في الأرض، وفي هذا إشارة من الله تعالى إلى الصفات القيادية المطلوبة للإشراف على تمكين شرع الله تعالى.

- الحزم: ويظهر ذلك في القيادة عند غلبة الظن أنَّ هناك تقصيراً، أو تكاسلاً عن الحضور وقت الطلب، أو التأخر وقت العمل (لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ﴾[النمل: 21] فإنّه قد تبين لسليمان عليه السلام أنَّ الهدهد غائبٌ، فتهدَّده بذلك أمام الجمع الذي يعلم أنَّ الهدهد غائب، حتى لا يكونَ غيابُه ـ إن لم يؤخذ بالحزم ـ سابقةً سيئةً لبقية الجند[3].

---

[1] الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (193/9).
[2] تفسير روح المعاني (193/9).
[3] في ظلال القران (2638/5).

- **التريث والتأني قبل الحكم**، فلعلّ للغائب عذراً، أو للمقصر حجة تدفع الإثم، وترفع العقوبة، ولهذا قال سليمان عليه السلام بعدها: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ *﴾[النمل: 21] أي: بحجة تبيّن عذره في غيبته[1]. وهذا هو اللائق بالحاكم والقاضي إذا كان عادلاً، وسليمان عليه السلام الذي اشتهر بالعدالة هو وجنوده حتّى عند النمل، لا يُنْتَظَرُ منه مع الهدهد، أو ما دونه أو ما فوقه، إلا أن يكون عادلاً، لا يعاجِلُ بالعقوبة قبل ثبوتِ الجريمة، ولا يبادر إلى المؤاخذة قبل سماع الحجة.

- **سعة الصدر في الاستماع إلى اعتذار المعتذر**، وحجة المتخلف: وسليمانُ عليه السلام أنصتَ لاسترسال الهدهد حتى انتهى من قوله، على الرغم من أنّ فيه نوعُ معاتبةٍ لسليمان، وفيه نسبةُ عدم الإحاطة إليه: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ *وَجَدْتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ *أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ *﴾ ﴿لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ *﴾[النمل: 22 . 26]، كلُّ هذا وسليمانُ لا يقاطعه، ولا يكذّبه، ولا يعنّفه، حتى ينتهيَ من سرد الحجة، التي كانت مفاجأةً ضخمةً لسليمان عليه السلام.

- **قبول الإعتذار ممن يعتذر في الظاهر**: وإيكال سريرته إلى الله، فسليمانُ عليه السلام سكتَ عن المؤاخذةِ، وانتقل إلى تحرّي الخبر. قال القرطبي رحمه الله: هذا دليلٌ على أنَّ الإمامَ يجب عليه أن يقبلَ عُذرَ رعيته، ويدرأ العقوبةَ عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم، لأنّ سليمانَ عليه السلام لم يعاقبِ الهدهدَ حين اعتذر إليه[2].

- **التروّي في تصديق الخبر**، هذا الذي حكاه الهدهد، أمرٌ ليس بالسهل ولا باليسير، ثم إنَّ الهدهد لا يجرؤ على اختلاق هذه القصة الطويلة، وهو يعلم تمكُّن سليمانَ من الرعية، ومقدرتُه على التأكد من صحة الأخبار، ومع ذلك لم يبادر عليه السلام إلى التصديق، كما أنّه لم يتعجّل التكذيب، بل قال: وهو من ﴿سَنَنْظُرُ﴾، أو التأمل

---

[1] تفسير القرطبي (180/13).
[2] المصدر نفسه (193/13).

والتحري[1]، وقوله تعالى: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ *﴾[النمل: 27]، يعني أصدقت في خبرك، أم كذبت لتتخلّص من الوعيد[2]؟!.

- **عدم الاغترار بقوة النفس وكثرة الجند وسعة السلطان:** وإسناد الفضل إلى الله في كلّ نعمة، وتجديد الشكر على هذه النعم، وسليمان عليه السلام لما طلبَ الإتيانَ بعرش بلقيس أجابته جنوده التي سخرها الله له، مسارعين إلى الطاعة، فلما وجد سليمانُ عليه السلام طلبَه مجاباً، وأمره مطاعاً، سارعَ إلى ضبط النفس في سلك الخشية ومنهاج التواضع والطاعة لله رب العالمين: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ﴾[النمل: 40] أي: رأى العرشَ ثابتاً عنده قال: ﴿هَذَا مِنْ فضل ربي﴾ أي: هذا النصرُ والتمكينُ من فضل ربي، ليختبرني أأشكر نعمته أم أكفرها؟ فإنَّ من شكر لا يرجع نفع شكره إلا إلى نفسه حيث استوجبَ بشكره تمامَ النعمةِ ودوامهَا والمزيدَ، ومن كفر النعم، فإنّ الله غنيٌّ عن شكره، كريمٌ في عدم منع تفضله عنه[3].

- **التواضع:** كان سليمانُ عليه السلام ـ وهو في قمة المجد وللتمكين ـ دائم التواضع، حتى قيل: إنّه كان يمشي منكسر الرأسِ خشوعاً لله، وأثناء استعراضه لجنوده من الجن والإنس والطير مرَّ على واد النمل، وفي نظرة التواضع إلى الأرض أبصرَ نملةً، فأشخصَ النظرَ صوبها، وأصاخَ السمعَ إليها، وبما عُلِّم من منطق الطير والحيوان حاول تفهم أمرها. لقد علم أنها تتخوّف من بطش أقدام جنوده، لقد سمعها وفهم قولها: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ *﴾ نعم إنها كائن صغير في مملكة ضخمة عظيمة، تسعى كأخواتها للرزق، وتنصح لهم أن يفسحوا الطريق أمام ركب الملك، حتى لا تقع مَظْلَمةٌ غيرُ مقصودة من أحد منهم، قال القرطبي رحمه الله: التفاتة مؤمن: أي من عدل سليمان وفضله وفضل جنده لا يحطمون نملة، فما فوقها إلاّ بألا يشعروا[4].

---

[1] تفسير الرازي (193/24).
[2] تفسير ابن كثير (349/3).
[3] الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (600/2).
[4] تفسير القرطبي (170/13).

إنَّ هذه النملة لم تكن إلاّ واحدةً من رعايا سليمان عليه السلام في مملكته التي ضمّت إلى جانب الإنس والجن أنواعاً وألواناً من الحيوان والطير والهوام، لقد سمع كلامها، وتفهّم شكواها، فتبسّم من قولها، فرقّ قلبه الكبير رفقاً لجِرْمها الصغير، فرحمها وأخواتها، وشكر ربه إذ علّمه منطق هذه المخلوقات، حتى يتمكّنَ من إنصافها وإيصال العدل إليها، وسُرَّ بأن عدالته وعدالة جنوده قد عرفها كل مخلوق، حتى مثل هذه النملة التي اعتذرت عنهم مقدماً، بأنهم إن أصابوا نملةً بأقدامهم، فإن ذلك من غير قصد منهم ولا شعور[1] ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا﴾ ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾[النمل: 19] لقد أدرك سليمانُ عليه السلام أنّه في جنب الله في حاجة إلى الرحمة والعطف واللطف أشدّ من حاجة هذه النملة إلى ذلك منه، ولهذا قال: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ *﴾[النمل: 19].

* * *

[1] الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (589/2).

ثانياً: الأسباب والتوكل:

التوكل على الله سبحانه وتعالى لا يمنعُ من الأخذ بالأسباب، فالمؤمنُ يتّخذ الأسباب من باب الإيمان بالله وطاعته فيما يأمرُ به من اتخاذها، ولكنّه لا يجعلُ الأسبابَ هي التي تنشِئ النتائج، فيتوكل عليها[1]، فالتوكل: هو قطعُ النظرِ في الأسباب بعد تهيئةِ الأسباب، كما قال صلى الله عليه وسلم: «اعقلها وتوكل»[2].

ففي جانب الأسباب يقول الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[النساء: 71]. ويقول تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[الأنفال: 60]، ويقول تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾[الجمعة: 10].

وفي جانب التوكل، يقول تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *﴾[آل عمران: 122]، ويقول تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[آل عمران: 159]، ويقول تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *﴾ .

ولقد أرشدنا النبيّ صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة إلى ضرورة الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى، كما نبّه النبيُّ صلى الله عليه وسلم على عدم تعارضها مع التوكل، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «لو أنّكم توكّلتم على اللهِ حَقَّ توكُّلِه لرزقكم كما يرزقُ الطيرَ، تغدو خماصاً، وتعود بطاناً»[3]. ففي هذا الحديث الشريف حَثٌّ على التوكل، مع الإشارة إلى أهمية الأخذ بالأسباب، حيث أثبتَ الغدوَّ والرواحَ للطير مع ضمان الله تعالى الرزق لها[4].

(1) التمكين للأمة الإسلامية ص (252).
(2) صحيح ابن حبان (510/2).
(3) الترمذي رقم (2344) حسن صحيح.
(4) التمكين للأمة الإسلامية ص (252).

إنَّ العملَ بسُنّة الأخذِ بالأسباب من صميم تحقيق العبودية لله تعالى، وهو الأمرُ الذي خُلِقَ له العبيد، وأُرسلت به الرسل، وأُنزلت لأجله الكتب، وبه قامت السماوات والأرض، وله وُجِدَت الجنة والنار، فالقيام بالأسباب المأمور بها محض العبودية[1].

إن القرآن الكريم أرشدنا إلى الأخذ بالأسباب، وأرشدنا ألاّ نعتمد عليها وحدَها، وإنّما نتوكل على الله مع الأخذ بها، وعلى المسلم أن يتقي في باب الأسباب أمرين:

الأمر الأول: الاعتماد عليها، والتوكل عليها، والثقة بها، ورجاؤها وخوفها، فهذا شِرْكٌ يدقُّ ويغلظ وبين ذلك.

الأمر الثاني: ترك ما أمر الله به من الأسباب، وهذا أيضاً قد يكون كفراً وظلماً وبين ذلك، بل على العبدِ أن يفعلَ ما أمره الله به من الأمر، ويتوكل على الله توكل مَنْ يعتِقدُ أنَّ الأمر كله بمشيئة الله، سبق بها علمُه وحكمُه، وأنَّ السبب لا يضرّ ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، ولا يقضي ولا يحكم، ولا يحصل للعبد ما لا تسبق له به المشيئة الإلهية، ولا يصرف عنه ما سبق به الحكم والعلم، فيأتي بالأسباب إتيانَ من لا يرى النجاة والفرج والوصول إلا بها، ويتوكل على الله توكل من يرى أنّها لا تنجيه ولا تحصل له فلاحاً، ولا توصله إلى المقصود، فيجرّدُ عزمَه للقيام بها حرصاً واجتهاداً، ويفرّغُ قلبَه من الاعتماد عليها والركون إليها تجريداً للتوكل، واعتماداً على الله وحده[2].

وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين هذين الأصلين في الحديث الصحيح، حيث يقول: «احرصْ على ما ينفعك، واستعنْ بالله ولا تَعْجَزْ»[3]. فأمره بالحرص على الأسباب، والاستعانة بالمسبب، ونهاه عن العجز، وهو نوعان:

النوع الأول: تقصير في الأسباب، وعدم الحرص عليها.

النوع الثاني: تقصير في الاستعانة بالله، وترك تجريدها.

فالدين كله ظاهِرُه وباطنه وشرائعه وحقائقه تحت هذه الكلمات النبوية[4].

---

(1) مدارج السالكين ، لابن القيم (130/2).
(2) مدارج السالكين (501/3).
(3) مسلم رقم (2664).
(4) في ظلال القران (919/2).

1 ـ القول بالتنافي بين التوكل والأخذ بالأسباب جهلٌ بالدين:

إنّ القولَ بالتنافي بين التوكل والأخذ بالأسباب جهلٌ بالدين، وهذا من قِلّة العلم بسنة الله في خلقه وأمره، فإنّ الله تعالى خلق المخلوقات بأسبابٍ، وشرع للعبادِ أسباباً ينالون بها مغفرته ورحمته وثوابه في الدنيا والاخرة، فمَنْ ظَنَّ أنَّه بمجرّد توكله، مع تركه ما أمره الله به من الأسباب يحصِّلُ مطلوبه، وأنَّ المطالب لا تتوقّف على الأسباب التي جعلها الله أسباباً لها فهو غالِطٌ[1].

2 ـ التوازن بين مقامي التوكل والأخذ بالأسباب:

الأصل أن يستعملَ العبدُ الأسبابَ التي بيّنها الله تعالى لعباده وأذن فيها، وهو يعتقد أنَّ المسبِّبَ هو الله سبحانه وتعالى، وما يصل إليه من المنفعة عند استعمالها بتقدير الله عز وجل، وأنّ إنْ شاء حرمه تلك المنفعة مع استعماله السببَ، فتكون ثقتُه بالله، واعتمادُه عليه في إيصال تلك المنفعة إليه مع وجود السبب[2].

وبالتتبّع لما قاله العلماء في التوازن بين المقامين نجد أنَّ جمهورَهم يقرّرون أنّ التوكُّلَ يحصل بأن يثق المؤمن بوعد الله، ويوقن بأنّ قضاءه واقعٌ، ولا يترك اتباع السنة في ابتغاء الرزق مما لا بدّ له منه من مطعم ومشرب وتحرُّز من عدو بإعداد السلاح وإغلاقِ الباب ونحو ذلك، ومع ذلك فلا يطمئنُّ إلى الأسبابِ بقلبه، بل يعتقد أنها لا تَجْلِبُ بذاتها نفعاً، ولا تدفعُ ضراً، بل السبب والمسبب فعلُ الله تعالى، والكلُّ بمشيئته، فإذا وقع من المرء ركونٌ إلى سبب قدح في توكّله[3].

أ ـ وفي القصص القرآني ما يَجْلِي هذا التوازنَ أيّما تجليةِ،

ويبيّن مفهوم هذين المقامين وتطبيقهما على أرض الواقع، وعلى الوجه الذي تقتضيه العقيدة الصحيحة مثل:

- قصة يعقوب عليه السلام مع أبناء عند وصيته لهم قبل دخولهم مصرَ لجلب ما يحتاجونه من طعامٍ وموادٍ غذائية حينَ أصابَ بلدهم الجدب والقحط، فقد وصّاهم كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ*﴾

---

[1] فتاوى ابن تيمية (529/8 ، 530).
[2] شعب الإيمان ، للبيهقي (79/2).
[3] السنن الإلهية ، د. مجدي محمد عاشور ص (215).

[يوسف: 67]. فيعقوب عليه السلام ضربَ لنا المثل في كيفية الأخذ بالأسباب في نطاق التوكُّل على الله، إذ في قوله: تدبيرٌ وتشبّثٌ بالأسباب العادية التي ﴿لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ تؤثّر إلا بإذن الله تعالى، ولكنه استدرك ذلك مبيناً لهم أنَّ الأخذ بالأسباب هنا ليس هو مدافعةً للقدر، بل هو استعانةٌ بالله تعالى، وهربٌ منه إليه[1]] فقال: أي: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يكون ما أمرتكم به مغنياً غناءً مبتدئاً من عند الله، بل هو الأدب والوقوفُ عند ما أمر الله، فإنْ صادف ما قدّره فقد حصلت فائدتان، وإن خالف ما قدّره حصلت فائدةُ امتثالِ أوامره، واقتناع النفس بعدم التفريط[2].

وقد أراد يعقوب عليه السلام بهذا أن يعلّم أبناءَه الاعتمادَ على توفيق الله ولطفه مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة، تأدُّباً مع واضع الأسباب، ومقدِّر الألطاف في رعاية الحالين، لأنا لا نستطيعُ أن نطّلعَ على مراد الله في الأعمال، فعلينا أن نتعرّفها بعلاماتها، ولا يكون ذلك إلا بالسعي لها، وهذا سرُّ مسألة القدر كما أشار إليها قولُ النبيّ صلى الله عليه وسلم: «اعملوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له»[3].

وبهذا يثبت أنَّ الأسباب لا بدَّ لها من سياج قوي من التوكُّل تدور في فلكه، ولا تخرجُ عن حقيقته، ليكونَ ذلك أدعى لتحقيق المراد، وأجدر لامتثال أمر الله، وذلك لأن الأسبابَ العادية لما لم تكن غير مستقلة في تأثيرها، ولا غنية في ذاتها، مفتقرة إلى ما وراءها. كان من الواجب على من يتوسَّلُ إليها في مقاصده الحيوية أن يتوكَّل مع التوسل إليها على سببٍ وراءها، ليتمَّ لها التأثير، ويكون ذلك منه جريّاً في سبيل الرشد والصواب، ويكون ذلك بالتوكل على الله سبحانه في الأمور كلها، فإنَّ الله لا إله إلا هو، ربّ كل شيء، وهذا هو الله سبحانه وحدَه لا شريكَ له، فإنّ الله لا إله إلا هو ربّ كل شيء، وهذا هو المستفادُ من الحصر الذي يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ *﴾ [إبراهيم: 12].

---

(1) روح المعاني ، للألوسي (19/13).

(2) تفسير التحرير والتنوير ، للطاهر بن عاشور (12/13).

(3) فتح الباري (709/8) ، مسلم (2040/4).

لقد مدح الله تعالى هنا يعقوب عليه السلام فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ*﴾[يوسف: 68]، لأنه عمل بالأسباب، واجتهد في توفيتها، وهو مقتضى الحكمة، ثم ردَّ الأمرَ كلَّه لله تعالى، واستسلم إليه، وهو حقيقة التوحيد فقال: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ﴾ ﴿مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾[يوسف: 67] فأثنى الله تعالى عليه من أجل جمعه بين هاتين الحالتين العظيمتين[1].

- قصة مريم عليها السلام: وهي كما وردت في القرآن الكريم تبيّن لنا بوضوحٍ بالغٍ أنّه لا اختلاف ولا تباين بين مقامي الأخذ بالأسباب والتوكل، إذ كلٌّ له ملابساته وظروفه التي ترجّحُ مقاماً على اخر في بعض الأوقات والأحوال.

كانت مريم في بداية حياتها يأتيها رزقُها من غير تكسُّبٍ، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ *﴾[آل عمران: 37]، فلما ولدت أُمِرتْ بهزّ الجذع، قال علماؤنا: لما كان قلبُها فارغاً فرّغ الله جارحتها عن النّصَب، فلما ولدت عيسى عليه السلام، وتعلق قلبها بحبه، واشغل سرُّها بحديثه وأمره، وكلَها إلى كسبها، وردها إلى العادةِ بالتعلّق بالأسبابِ في عباده[2].

ب . السنة النبوية:

ـــخ فعلى مستوى السنة الفعلية ثبتَ أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهَرَ في الحربِ بين درعين، ولبس على رأسه المِغْفر، وأقعدَ الرماةَ في الجبل، وخندق حولَ المدينة وأَذِنَ في الهجرةِ إلى الحبشة وإلى المدينة، وهاجرَ هو، وتعاطى أسبابَ الأكل والشرب، وأدّخر لأهله قوتهم، ولم ينتظر أن ينزلَ عليه من السماء، وكان هو أحقَّ الخلقِ أن يحصلَ له ذلك، ومع كلِّ ذلكلا يُظَنُّ برسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّه مالَ إلى شيءٍ من الأسباب غفلة مقدار طرفة عين[3].

---

[1] تفسير الثعالبي (247/2) ، السنن الإلهية ص (217).
[2] تفسير القرطبي (95/11. 96) ، السنن الإلهية ص (217).
[3] فتح الباري ، لابن حجر (212/10).

والمثال النبوي الفعلي لهذا التوازن على وجه التفصيل حادثُ الهجرة الذي اصطحب فيه أبا بكر الصديق رضي الله عنه، فقد استوفيا هما الاثنان في هذه الهجرة الأسباب المتاحة جميعها، ولم يغفلا واحداً منها[1].

إنّ من تأمّلَ حادثَة الهجرةِ، ورأى دِقّةَ التخطيط فيها، ودِقّةَ الأخذِ بالأسباب من ابتدائها إلى انتهائها، ومن مقدّماتها إلى ما جرى بعدها، يدركُ أنَّ التخطيط المسدَّدَ بالوحي في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قائماً، وأنَّ التخطيطَ جزءٌ من السنة النبوية، وهو جزءٌ من التكليف الإلهي في كلِّ ما طولب به المسلم، وأنّ الذين يميلون إلى العفوية، بحجة أنَّ التخطيط وإحكام الأمور ليسا من السنة، أمثال هؤلاء مخطئون، ويجنون على أنفسهم، وعلى المسلمين[2].

فعندما حان وقتُ الهجرةِ، وشرع النبيُّ صلى الله عليه وسلم في التنفيذِ، نلاحظ الاتي:

- **وجود التنظيم الدقيق للهجرة حتى نجحت:** برغم ما كان يكتنفها من صعابٍ وعقباتٍ، وذلك أنّ كلَّ أمرٍ من أمورِ الهجرةِ كان مدروساً دراسةً وافيةً، فمثلاً:

جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت أبي بكر في وقت شدّة الحرِّ، الوقت الذي لا يخرجُ فيه أحد، بل من عادته أنّه لم يكن يأتي له في ذلك الوقت، لماذا؟ حتّى لا يراه أحد.

- **إخفاء شخصيته صلى الله عليه وسلم في أثناء مجيئه للصّديق:** وجاء إلى بيت الصّدّيق متلثّماً، لأنّ التلثم يقلل من إمكانية التعرف على معالم وجه المتلثم[3].

- **أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يُخرِجَ مَنْ عنده،** ولما تكلّم لم يبيّن إلا الأمرَ بالهجرة دون تحديدِ الاتجاه.

- **كان الخروجِ ليلاً،** ومن باب خلفيٍّ في بيت أبي بكر[4].

---

(1) السنن الإلهية ، د. مجدي عاشور ص (217).
(2) الأساس في السنة ، سعيد حوى (357/1).
(3) في السيرة النبوية: قراءة لجوانب الحذر والحماية ، د. إبراهيم علي أحمد ص (141).
(4) من معين السيرة ، للشامي ص (147).

- **بلغ الاحتياط مداه،** باتخاذ طرق غير مألوفة للقوم، والاستعانة على ذلك بخبيرٍ يعرف مسالك البادية، ومسارب الصحراء، ولو كان ذلك الخبير مشركاً، ما دام على خُلُقٍ ورزانة، وفيه دليل على أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم كان لا يحجِمُ عن الاستعانة بالخبرات مهما يكن مصدرها[1].
- **انتقاء شخصيات لتقومَ بالمعاونة في شؤون الهجرة،** ويلاحظ أن هذه الشخصيات كلّها تترابط برباط القرابة، أو برباط العمل الواحد، مما يجعل هؤلاء الأفراد، وحدة متعاونة على تحقيق الهدف الكبير.
- **وضع كلّ فردٍ من أفراد هذه الأسرة في عمله المناسب،** الذي يجيدُالقيام به على أحسن وجه، ليكونَ أقدرَ على أدائه والنهوض بتبعاته.
- **فكرة نوم علي بن أبي طالب رضي الله عنه مكان الرسول صلى الله عليه وسلم فكرة ناجحة،** قد ضلّلت القوم، وخدعتهم، وصرفتهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى خرجَ في جُنْحِ الليل تحرسُه عنايةُ الله، وهم نائمون، ولقد ظلت أبصارُهم معلقة بعد اليقظة بمضجع الرسول صلى الله عليه وسلم، فما كانوا يشكّون في أنه ما يزال نائماً مُسجًّى في بردته، في حين كان النائم هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
- **وقد كان عمل أبطال هذه الرحلة على النحو التالي:**

عليّ رضي الله عنه: ينام في فراش الرسول صلى الله عليه وسلم، يخدع القومَ، ويُسلِّمُ الودائع، ويلحق بالرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك.

عبد الله بن أبي بكر: رجل المخابرات الصادق، وكاشف تحركات العدو.

أسماء ذات النطاقين: حاملة التموين من مكة إلى الغار، وسط جنود المشركين، بحثاً عن محمد صلى الله عليه وسلم ليقتلوه.

عامر بن فُهيرة: الرّاعي البسيط، الذي قدّم اللحم واللبن إلى صاحبي الغار، وبدّدَ اثار أقدام المسيرة التاريخية بأغنامه، كي لا يتفرّسها القوم، لقد كان هذا الرّاعي يقوم بدور الإمداد، والتموين، والتّعمية.

---

[1] الهجرة في القران الكريم ، أحزمي سامعون ص (361).

عبد الله بن أريقط: دليل الهجرة الأمين، وخبير الصحراء البصير، ينتظر في يقظة إشارةَ البدء من الرسول صلى الله عليه وسلم، ليأخذ الركب طريقه من الغار إلى يثرب، فهذا تدبير للأمور على نحو رائعٍ دقيقٍ، واحتياطٍ للظروف بأسلوبٍ حكيمٍ، ووضع لكلّ شخصٍ من أشخاص الهجرة في مكانه المناسب، وسدٍّ لجميع الثغرات، وتغطية بديعة لكلِّ مطالب الرحلة، واقتصارٍ على العدد اللازم من الأشخاص من غير زيادة ولا إسراف.

لقد أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم بالأسباب المعقولة أخذاً قوياً حسب استطاعته وقدرته، ومن ثَمّ باتت عنايةُ الله متوقعةً[1].

إنّ اتخاذ الأسباب أمرٌ ضروري وواجب، ولكن لا يعني ذلك دائماً حصول النتيجة، ذلك لأن هذا أمرٌ يتعلق بأمر الله ومشيئته، ومن هنا كان التوكّلُ أمراً ضرورياً، وهو من باب استكمال اتخاذ الأسباب.

إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعدَّ كل الأسباب، واتّخذ كلَّ الوسائل، ولكنّه في الوقت نفسه مع الله، يدعوه ويستنصره أن يكلل سعيه بالنجاح، وهنا يُستجابُ الدعاء، وينصرف القوم بعد أن وقفوا على باب الغار، وتسيخُ فرسُ سُراقة في الأرض، ويكلل العمل بالنجاح[2].

- **وأما على مستوى السنة القولية في هذا الصدد:** نجد أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «فِرّ مِنَ المجذومِ فرارَك من الأسَدِ»[3]، في الوقت الذي ثبت فيه أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أكل مع المجذوم[4]. وظاهر الحديثين يدل على التنافي بين التوكل والأخذ بالأسباب، إلا أنّه عند التحقيق نجد أنه صلى الله عليه وسلم أكل مع المجذوم، ليبيّن أنَّ الله هو الذي يُمْرِضُ ويشفي، وأنّه لا شيءَ يعدي بطبعه[5]، نفياً لما كانت الجاهلية تعتقده من أنّ الأمراضَ تعدي بطبعها من إضافة إلى الله، فأبطل النبيُّ صلى الله عليه وسلم اعتقادهم ذلك، في حين نهى النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن الاقتراب من المجذوم، ليبيّن أنَّ هذا من الأسبابِ التي أجرى الله تعالى العادة بأنها تفضي إلى مسبباتها، ففي نهيه إثبات

---

[1] أضواء على الهجرة ، توفيق محمد ص (393 . 397).
[2] السيرة النبوية ، للمؤلف (480/1).
[3] فتح الباري على صحيح البخاري (158/10).
[4] الترمذي (266/4) ، صحيح الإسناد.
[5] الجذام نوعان:حميد غير مُعْدٍ ، وخبيث مُعْدٍ (ن).

الأسباب، وفي فعله إشارةٌ إلى أنها لا تستقل، بل الله هو الذي إنْ شاء سلبها قواها، فلا تؤثر شيئاً، وإن شاء أبقاها فأثرت، وفي ذلك فسحةٌ لمقام التوكل على الله[1]، وهذا يبيّن أنّ لكلِّ حالةٍ مقامها التي شرعها الله عز وجل لها.

ومن ذلك ما ورد أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرَّ بقوم فقال: من أنتم؟ قالوا: المتوكلون. قال: أنتم المتواكلون، إنَّما التوكل رجلٌ ألقى حَبَّه في بطنِ الأرضِ، وتوكل على ربه عز وجل[2].

* * *

(1) فتح الباري (10/160 . 161).

(2) شعب الإيمان (2/81) ، السنن الإلهية ، ص (219).

ثالثاً: الأسباب والمسببات:

إنّ الله تعالى قدّر الأشياءَ بأسبابها، فالقدر يتعلّق تعلقاً واحداً بالسبب وبالمسبب معاً، أي إن هذا المسبب سيقع بهذا السبب، ومن الأدلة على ذلك قولُ النبيّ صلى الله عليه وسلم: «إنَّ الله خلق للجنة أهلاً، خلقها لهم وهم في أصلاب ابائهم، وبعمل أهل الجنة يعملون، وخلق للنارِ أهلاً، خلقَها لهم وهم في أصلابِ ابائهم، وهم بعمل أهل النار يعملون»[1].

وفي المضمار نفسِه أخبر النبيُّ صلى الله عليه وسلم صحابته بأنَّ الله كتب المقادير، فقالوا: أفلا نمكثُ على كتابنا وندع العمل؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ كانَ مِنْ أهلِ السعادةِ فسيصيرُ إلى عَمَلِ أهلِ السعادةِ، وَمَنْ كان من أهلِ الشقاوةِ فسيسيرُ إلى عملِ أهل الشقاوةِ، اعملوا فكلٌّ ميسَّرٌ، أمّا أهلُ السعادةِ فييسرون لعمل أهل السعادةِ، وأمّا أهلُ الشقاوة فِييسَّرون لعملِ أهلِ الشقاوة، ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى *وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى *فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى *وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى *وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى *فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى *﴾[الليل: 5 . 10]»[2].

وفي هذا الحديث النهيُ عن ترك العمل، والاتكال على ما سبق به القدر، بل تجبُ الأعمالُ والتكاليفُ التي ورد الشرع بها، وكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلِقَ له، لا يقدر على غيره.

فالنبيُّ صلى الله عليه وسلم أرشدَ الأمةَ في هذا الحديث في شأن القدر إلى أمرين هما سبب السعادة: الإيمان بالأقدار، إذ هو نظام التوحيد، والإتيان بالأسباب، التي توصل إلى خيره، وتحجز عن شره، وذلك نظام الشرع، فأرشدهم إلى نظام التوحيد والأمر[3].

---

[1] مسلم (2050/4) ، السنن الإلهية ، ص (218).
[2] صحيح مسلم بشرح النووي (196/16)
[3] شفاء العليل ، لابن القيم ص (53).

فلا منافاةَ بين الأخذِ بالأسباب، والإيمان بالقضاء والقدر، فَمِنَ القضاءِ ردُّ البلاء بالدعاء، فالدعاءُ سببٌ لردِّ البلاء، واستجلاب الرحمة، كما أنَّ الترس سببٌ لردِّ السهم، والماءُ سببٌ لخروج النبات من الأرض، فكما أنَّ الترسَ يدفع السهمَ فيتدافعان، فكذلك الدعاءُ والبلاءُ يتعالجان، وليس مِنْ شرطِ الاعترافِ بقضاء الله تعالى أنْ لا يحملَ السلاحَ، وقد قال تعالى: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[النساء: 71]، وأن لا يسقي الأرضَ بعد بثّ البذور، فيقال: إنْ سبقَ القضاءُ بالنباتِ نبتَ البذر، وإن لم يسبق لم ينبت، بل رَبْطُ الأسبابِ بالمسببات هو القضاء الأول الذي هو كلمحِ البصرِ أو هو أقرب، وترتيبُ تفصيلِ المسبّبات على تفاصيل الأسباب على التدريج والتقدير هو القدر، والذي قدّر الخيرَ قدّره بسببه، والذي قدّر الشرّ قدّر لدفعه سبباً، فلا تناقض بين هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته[1].

ولبيان ارتباط الأخذ بالأسباب وتناسقه مع الإيمان والقدر وفْق الحكمة الإهية يقول الرازي عن تفسير قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[النساء: 71]: إنَّه لما كان الكلُّ لقدرٍ كان الأمر بالحذر أيضاً داخلاً في القدر، فكان قول القائل: (أيُّ فائدةٍ من الحذر) كلاماً متناقضاً، لأنه لما كان هذا الحذر مقدراً، فأي فائدةٍ في هذا السؤال الطاعن في الحذر[2]؟.

وحاصلُ تحقيق كلام الرازي: أنَّ القدرَ عبارةٌ عن جريان الأمور بنظام تأتي فيه الأسباب على قدر المسببات، والحذر من جملة الأسباب، فهو عملٌ بمقتضى القدر لا بما يضاده[3].

ويؤيّدُ ذلك من السنة النبوية ما ورد أنَّه قيل للنبيِّ صلى الله عليه وسلم: أرأيتَ أدويةً نتداوى بها ورُقًى نسترقي بها، وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هي مِنْ قدر الله»[4]، وذلك لأنَّ الله تعالى يعلم الأشياء على ما هي عليه، وكذلك يكتبها، فإذا كان قَدْ علم أنَّها تكونُ بأسبابٍ من عمل وغيرِه، وقضى أنها

---

[1] إحياء علوم الدين (202/3) ، الفتاوى ، لابن تيمية (79/8 . 70).
[2] التفسير الكبير ، للرازي (308/5).
[3] السنن الإلهية ، د. مجدي عاشور ص (210).
[4] الترمذي (399/4) ، حسن صحيح.

تكون كذلك وقدر ذلك، لم يجزْ أن يُظَنَّ أنَّ تلك الأمور تكونُ بدون الأسباب التي جعلها الله أسباباً، وهذا عام في جميع الحوادث[1].

إنّ قدر الله تعالى وقضاؤه غير معلومين لنا، إلا بعد الوقوع، فنحن مأمورون بالسعي فيما عساه أن يكون كاشفاً عن موافقة قدر الله لمأمولنا، فإنِ استفرغنا جهودنا، وحُرمنا المأمولَ، علمنا أنَّ قدر الله جرى من قبل على خلاف مرادنا، فأمّا تركُ الأسبابِ فليس من شأننا، وهو مخالِفٌ لما أراد الله منا، وإعراضٌ عما أقامنا الله فيه في هذا العالم، وهو تحريفٌ لمعنى القدر[2].

إنَّ القضاء والقدر ـ اللذين ورد ذكرهما في القرآن، وجعلهما الناسُ مرتبطين بفعل الإنسان ومسلكه في الحياة ـ سوى النظام العام الذي خلق الله عليه الكونَ، وربط فيه بين الأسباب والمسببات، وبيّنَ النتائج والمقدمات ـ سنة كونية دائمة لا تتخلّف، والحاصِلُ أنَّ الإسلامَ لا يسمحُ أن يضلَّ الإنسان أو ينحرفَ عن أوامر الله في عقائده ودينه، ثم يعتذر بالقضاء والقدر، ولو صحَّ ذلك لبطلت التكاليفُ، وكان بعثُ الرسل وإنزالُ الكتب، ودعوةُ الإنسان إلى دين الله وما يجب، ووعده بالثواب لأهل الخير وبالعقاب لأهل الشر باطلاً، لا يتفق وحكمة الخالق الحكيم في تصرفه وتكليفه الرحيم بعباده[3].

1 ـ تأثير السبب في المسبب:

إنَّ الذي عليه السلف وأتباعهم وأئمة أهل السنة وجمهور أهل الإسلام المثبتون للقدر إثبات الأسباب، وأنَّ قدرةَ العبدِ مع فعله لها تأثيرٌ كتأثير سائر الأسباب في مسبباتها، والله تعالى خلقَ الأسباب والمسبّبات، والأسبابُ ليست مستقلّةً بالمسببات، بل لا بدَّ لها من أسبابٍ أُخر تعاونها، ولها مع ذلك أضدادٌ تمانعها، والمسبَّبُ لا يكونُ حتّى يخلقَ الله

[1] مجموع الحوادث (275/8).
[2] تفسير التحرير والتنوير ، لابن عاشور (138/4).
[3] الإسلام عقيدة وشريعة ، محمود شلتوت ص (212).

جميعَ أسبابه، ويدفع عنه أضداده المعارضة له، وهو سبحانه يخلق جميع ذلك بمشيئته وقدرته، كما يخلق سائرَ المخلوقات، فقدرةُ العبدِ سببٌ من الأسباب، وفعلُ العبدِ لا يكونُ بها وحدَها، بل لا بدَّ من الإرادة الجازمة مع القدرة[1].

ولا قال أحدٌ من أئمة المسلمين، لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم ولا مالك، ولا أبو حنيفة ولا الشافعي ولا أحمد بن حنبل، ولا الأوزاعي، ولا الثوري، ولا الليث، ولا أمثال هؤلاء: إنَّ اللهَ يكلِّفُ العبادَ ما لا يطيقونه، ولا قال أحدٌ منهم: إنَّ قدرة العبد لا تأثيرَ لها في فعله، أو لا تأثيرَ لها في كسبه، ولا قال أحد منهم: إنّ العبدَ لا يكونُ قادراً إلا حين الفعل، وإنّ الاستطاعة على الفعل لا تكونُ إلا معه، وإنّ العبدَ لا استطاعةَ له على الفعل قبل أن يفعله، بل نصوصُهم مستفيضةٌ بما دلَّ عليه الكتاب والسنة من إثباتِ استطاعة لغيرِ الفاعل، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾[آل عمران: 97]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً﴾[المجادلة: 4]، وقول النبيِّ صلى الله عليه وسلم لعمران ابن حصين: «صلِّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإنْ لم تستطعْ فعلى جَنْبٍ»[2].

والمقصودُ بتأثير السبب في المسبب، أنَّ خروجَ الفعل من العدم إلى الوجود كان بتوسط القدرة المحدَثة، بمعنى أنَّ القدرة المخلوقة هي سببٌ وواسطةٌ في خلق الله سبحانه وتعالى الفعل بهذه القدرة، كما خلق النبات بالماء، وكما خلق الغيثَ بالسحاب، وكما خلق جميعَ المسببات والمخلوقات بوسائط وأسباب، فهذا حقٌّ، وهذا شأن جميع الأسباب والمسببات، وليس إضافةُ التأثير بهذا التفسير إلى قدرة العبد شركاً، وإلا يكونُ إثباتُ جميع الأسبابِ شركاً، وقد قال الحكيم الخبير: ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾[المؤمنون: 57]، وقال تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾[المؤمنون: 60]، وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾[الأنفال: 14].

كما أنَّ تأثيرَ العبدِ في فعله يتوقَّفُ على تحقيق الشرط، وانتفاءِ المانع، فإذا فُسِّرَ التأثيرُ بوجودِ شرطِ الحادث أو سببٍ يتوقّف حدوثُ الحادثِ به على سببٍ اخر، وانتفاءِ موانعَ. وكلُّ ذلك بخلقِ الله تعالى، فهذا حقٌّ، وتأثيرُ قدرةِ العبدِ في مقدورها ثابتٌ بهذا الاعتبار، وإنْ فُسِّرَ التأثيرُ بأن المؤثِّر مستقلٌّ بالأثر من غير مشارك معاونٍ ولا معاوقٍ مانعٍ فليس

---

[1] مجموع فتاوى ، ابن تيمية (487/8).

[2] فتح الباري على صحيح بخاري (587/2).

شيءٌ من المخلوقات مؤثراً، بل الله وحدَه خالقُ كلِّ شيءٍ لا شريك له ولا ندَّ له، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

يقول تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾[فاطر: 2]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ﴾ ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾[سبأ: 22 ـ 32]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ *﴾[الزمر: 38]، ونظائر هذا في القرآن كثيرة[1].

إنَّ من الأسباب ما يعرفه كلُّ إنسان بفطرته، مثل الوطء سبب الولد، وإلقاءُ البذورِ سببٌ للزرع، والأكلُ سببٌ للشبع، وشربُ الماء سببٌ للري.

ومن الأسباب ما يجادِلُ فيه بعضُ الناس، مثل اتّباعِ شرعِ الله سببٌ للسعادة في الدنيا والاخرة، والخروجُ على هذا الشرع سببٌ للشقاوة في الدنيا والاخرة، والدعاءُ سببٌ لدفع المكروه ونوالِ المطلوبِ.

ومن الأسباب ما يخفى على كثيرٍ من الناس مثل أسباب الأحداث الاجتماعية، وما يصيبُ الأمم من عزٍّ وذلٍّ، وتقدّم وتأخّر، ورخاء وشدّة، وهزيمة وانتصار، ونحو ذلك، فهذه الأحداثُ لها أسبابها التي تستدعي هذه النتائج، ولا يمكن تخلّف هذه النتائج إذا انعقدت أسبابُها، فهي كالأحداث الطبيعية من تجمّد الماء وغليانه، ونزول المطر، فهذه أحداثٌ لها أسبابها التي قدّرها الله، فمتى تحققت هذه الأسبابُ تحققت هذه الأحداث، وكلُّ الفرق بينها وبين الأحداث الاجتماعية أنَّ الأُولى أسبابها منضبطةٌ، ويمكن معرفةُ حصولِ أكثرها إذا عرفتَ أسبابَها، أمّا الثانية ـ أي الأحداث الاجتماعية ـ فإنّ أسبابَها كثيرةٌ جداً، ومتشابكةٌ، ويصعبُ الجزمُ بوقتِ حصولِ نتائجها، وإنْ أمكنَ الجزمُ بحصولِ هذه النتائج.

---

[1] مجموع فتاوى ابن تيمية (8/134 ـ 135).

والشرع دلّنا على هذا القانون العام قانونُ السبب والمسبب في نصوص كثيرة والمقصودُ أنَّ ما قدّره الله وقضاه إنّما قدّره بأسبابٍ، فمن أرادَ الحصول على نتيجة معينة فلا بدَّ من مباشرة السبب المفضي إليها[1].

وما ذهب إليه العلماء المحقّقون في فاعليةِ السبب في مسبّبه بإذن الله تعالى هو ما يتّفق مع ظاهرِ النصوصِ القرآنية والأحاديثِ النبويّة الصحيحة، وهو المنهجُ الوسط، والطريقُ الأسد في إعمالِ النصوص كلِّها على وجهِ الجمعِ دون الاقتصارِ على بعضِها، وهذا ما ذكرناه، هو ما ذهبَ إليه السلفُ الصالح، وتلقّاه أهل العلم بالقبول.

ولا يخفى أنّ اعتناقَ هذا الرأي يفسحُ الطريقَ أمام القيام بأعباء خلافة الإنسان في الأرض، والتفكّر في سنن الله في الخلق، وتوطئة للوقوف على أسبابها ونتائجها، ومن ثَمَّ التفاعل مع معطياتها بما يحقّق إناطة تحمّل المسؤولية بالمكلّفين في الدنيا والاخرة، وهو الأمرُ الذي يوسّع ويثري مِنْ دائرة الدراسات الاجتماعية والنفسية والأخلاقية وِفْقَ المنهج الإسلامي، مما يعيد لهذه الأمة شهودَها الحضاري، ووسطيتها الشاملة التي ضَمِنَها لها الشرعُ الشريفُ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة: 143]، وبذلك تعودُ الأمة إلى أصولها وخيريتها ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَةٍ أُخْرِجَتْ﴾ ﴿لِلنَّاسِ﴾[ال عمران: 110]، وبالأحرى تتخلّص من تبعيتها للثقافات الوافدة التي ترزح تحت وطأتها إلى يومنا هذا، رغم عدم انسجامها مع معطيات الشرع وحقائق الفطرة[2].

2. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة ولا صفر»:[3]

وشرح هذا الحديث أن: «العدوى» انتقالُ المرضِ من المريضِ إلى الصحيحِ، وكما يكونُ في الأمراض الحسية يكونُ في الأمراض المعنوية الخُلقية، ولهذا أخبر النبيُّ صلى الله عليه وسلم أنَّ جليسَ السوءِ كنافخ الكير، إمّا أن يحرقَ ثيابك، وإمّا أن تجدَ منه رائحةً كريهة، فقوله صلى الله عليه وسلم «لا عدوى» يشمل العدوى الحسية والمعنوية. «والطيرة» هي التشاؤم بمرئي أو مسموعٍ أو معلومٍ.

«والهامة» فُسّرت بتفسيرين:

---

[1] الإيمان بالقضاء والقدر ، د. عبد الكريم زيدان ص (20).
[2] السنن الإلهية ، د. مجدي عاشور ص (203).
[3] البخاري رقم (5757) مسلم رقم (2220).

الأول: داءٌ يصيبُ المرضى، وينتقل إلى غيرهم، وعلى هذا التفسير يكون عطفها على العدوى من باب عطف الخاص على العام.

الثاني: طيرٌ معروفٌ تزعم العرب أنّه إذا قُتلَ القتيلُ فإنّ هذه الهامة تأتي إلى أهله، وتنعقُ على رؤوسهم، حتى يأخذوا بثأره، وربّما اعتقد بعضُهم أنها روحه تكونُ في صورة الهامة، وهي نوعٌ من الطيور تشبه البومة، أو هي البومة، تؤذي أهلَ القتيلِ بالصراخ حتى يأخذوا بثأره، وهم يتشاءمون بها، فإذا وقعتْ على بيتِ أحدهم ونعقت قالوا: إنها تنعق به ليموتَ، ويعتقدون قربَ أجلِهِ، وهذا باطلٌ.

«وصفر»: فسر بتفاسير:

الأول: أنّه شهرُ صفر المعروف، والعرب يتشاءمون به.

الثاني: أنّه داءٌ في البطن، يصيب البعير، وينتقل من بعيرٍ إلى اخر، فيكونُ عطفه على العدوى من باب عطف الخاص على العام.

الثالث: المرادُ به النسيءُ الذي يضلُّ به الذين كفروا، فيؤخّرون تحريمَ شهر المحرم إلى صفر، يحلونه عاماً، ويحرمونه عاماً.

وأرجحها أنَّ المراد صفر حيثُ كانوا يتشاءمون به في الجاهلية، والأزمنةُ لا دخلَ لها في التأثير، وفي تقدير الله عز وجل، فهو كغيره من الأزمنة، يقدّر فيه الخير والشر، فهذه الأربعةُ التي نفاها الرسول صلى الله عليه وسلم تدلُّ على وجوب التوكّل على الله، وصدق العزيمة، ولا يضعف المسلمُ أمام هذه الأمور.

والنفي في هذه الأربعة ليس نفياً للوجود، لأنّها موجودةٌ، ولكنّه نفيٌ للتأثير، فالمؤثّرُ هو الله، فما كان منها سبباً معلوماً فهو سببٌ صحيحٌ، وما كان منها سبباً موهوماً فهو سببٌ باطل، ويكون نفياً لتأثيره بنفسه ولسببيته، فالعدوى موجودةٌ، ويدلُّ لوجودها قوله صلى الله عليه وسلم: «لا يوردُ ممرضٌ على مصحٍّ»[1]. أي لا يورد صاحبُ الإبل المريضةِ

---

[1] البخاري رقم (5771).

على صاحبِ الإبلِ الصحيحةِ، لئلا تنتقلَ العدوى. وقوله صلى الله عليه وسلم: «فِر من المجذوم فرارَك من الأسدِ»[1]، والجذام: مرض خبيثٌ معدٍ بسرعة، ويتلفُ صاحبه، فالأمر بالفرار حتّى لا تقع العدوى، وفيه إثباتُ العدوى لتأثيرها، لكنَّ تأثيرَها ليس أمراً حتمياً بحيث تكون علة فاعلة، ولكنْ أمرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالفرار من المجذوم، وأن لا يوردَ ممرضٌ على مصحّ، من باب تجنّب الأسباب، لا من باب تأثير الأسباب بنفسها، قال تعالى: ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[البقرة: 195]، ويقال: إنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم لا ينكِرُ تأثير العدوى، لأنّ هذا أمرٌ يبطله الواقع والأحاديث الأخرى.

فإن قيل: إنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم لما قال: «لا عدوى»، قال رجل: يا رسول الله أرأيتَ الإبلَ تكونُ في الرمالِ مثل الظباء، فيدخلها الجملُ الأجربُ فتجربُ؟ فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «فمن أعدى الأول»[2]، فالنبيُّ صلى الله عليه وسلم أشار بقوله: «فمن أعدى الأول» إلى أنّ المرض انتقل من المريضة إلى هذه الصحيحاتِ بتدبير الله عز وجل، فالمرضُ نزل على الأول بدون عدوى، بل نزل من عند الله عز وجل، والشيءُ قد يكونُ له سببٌ معلوم، وقد لا يكون له سببٌ معلوم، وجَرَبُ الأولِ ليس معلوماً، إلا أنّه بتقدير الله تعالى، وجَرَبُ الذي بعده له سببٌ معلوم، ولو شاء الله تعالى ما جرب، ولهذا أحياناً تصاب الإبل بالجرب، ثم يرتفع ولا تموت.

وكذلك الطاعون والكوليرا أمراضٌ معدية قد تدخل البيتَ فتصيب البعض فيموتون، ويسلمَ اخرون ولا يصابون، فالإنسانُ يعتمد على الله، ويتوكّل عليه، وقد جاء أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قدم عليه رجلٌ مجذومٌ، فأخذ بيده، وقال له «كل» أي من الطعام الذي كان يأكل منه الرسول صلى الله عليه وسلم لقوّةِ توكله صلى الله عليه وسلم، فهذا التوكُّل مقاوِمٌ لهذا السبب المعدي، وهذا الجمعُ الذي ذكرنا أحسن ما قيل في الجمع بين الأحاديث، وإذا أمكن الجمع وجب، لأن فيه إعمال الدليلين[3].

---

[1] البخاري رقم (5707).

[2] المجموع الثمين لابن عثيمين (212/2).

[3] المصدر نفسه (212/2) قلت: الجذام نوعان حميد غير معدٍ ، وخبيث معدٍ كما نص على ذلك الأطباء (ن).

3. الجزاء الأخروي والأسباب:

لم يقتصر قانونُ السببية على إقامة الكون وتسييره فحسب، ولا على الثواب والعقاب الدنيوي وحدَه، وإنّما تجاوز ذلك ليكونَ الأصلُ أيضاً في الثواب والعقاب الأخروي، وذلك من كمال العدل الرباني والحكمة البالغة، والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا *﴾[النساء: 147]، فهذه الآية دالّةٌ على اعتبارِ سنّة الأسباب حتى في الجزاء الأخروي، إذ لا عذابَ إلا بكفران، فإذا انتفى السبب، وهو الكفر سواء الاعتقادي أو العملي. فلا عذابَ، بل هو نعيمٌ ودخول في معية المؤمنين، كما دلت على ذلك الآيات السابقة لهذه الآية، وهي التي بيّنت طريقَ الخلاصِ للمنافقين من نفاقهم، وسبيل قبول الله أعمالهم، فقالت بعد توعُّدِ المنافقين بالدرك الأسفل من النار: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ﴾ ﴿لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا *﴾[النساء: 146]. والآيات في اعتبار الأسباب في الجزاء الأخروي كثيرة، ومنها على سبيل المثال: قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ *﴾ 24]، وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *﴾ 19]، وقوله تعالى: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[آل عمران: 181 . 182]، وقوله تعالى: ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلاَ شَرَابًا *إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا *جَزَاءً وِفَاقًا *﴾ 24 . 26]، وقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا﴾ ﴿كَانُوا يَكْسِبُونَ *﴾[التوبة: 95][1].

4. الحث على طلب الأسباب في الأمور المكفولة:

ترشِدُنا الآيات القرآنية إلى أنّ الأمرَ الشرعيَّ قائمٌ على حَثِّ الخلق على الأخذ بالأسباب حتى في الأمور التي كفلها الله له بموجب فضله وكرمه، ومن شواهد ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ *﴾ 15] فقد تكفّل الله برزق مخلوقاته بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ﴾ ﴿دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾[هود: 6]، وقال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ *﴾[الذاريات: 22]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَآبَّةٍ لاَ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾[العنكبوت: 60].

---

[1] السنن الإلهية ، د. مجدي عاشور ص (145).

ولكنّه سبحانه جعل طريق وصول هذا الرزق وتحصيله في الأخذ بالأسباب، والسعي والكسب في الحياة[1]، ومع تقدير الله للعبد في الرزق، فيجبُ عليه طرق الأسباب في طلب الرزق، وهذا لا ينافي التوكل، وزيادة الرزق جعل الله لها أسباباً منها:

أ . صلة الرحم: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ سَرّه أَنْ يُبْسَطَ له في رِزْقِهِ، وَأَنْ يُنْسَأَ له في أَثَرِه، فَلْيَصِلْ رَحِمَه»[2].

ب . تقوى الله: قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾[الطلاق: 2 . 3]، وكذلك اجتناب البغي، وظلم العباد، والرياء، وأكل مال اليتيم.

وكذلك الأسباب الطبيعية والمادية، كالسعي للرزق، وبذل الجهد، واختيار الأزمان المناسبة، وحسن اختار المكاسب النافعة ونحو ذلك، وهذه الأسبابُ والمسبّبات كلُّها بقدر الله تعالى ومشيئته[3].

وما أجملَ ما قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبعض الناس في زمنه عندما قال: لا يقعدنَّ أحدُكم عن طلب الرزق، ويقول: اللهمَّ ارزقني، وقد علمَ أنَّ السماءَ لا تمطِرُ ذهباً ولا فِضّة، وإنّما يرزقُ الله تعالى بعضَهم من بعضٍ، أما قرأتم قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾[الجمعة: 10][4].

5 . مراعاة صورة الأسباب في الخوارق:

إذا كان الأصلُ في السنن الجارية هو تعلّق المسببات بأسبابها، وارتباطُ النتائج بمقدّماتها، فإنّ الأصل لا يتغير في السنن الخارقة المبنية على خرق العادة والأسباب، وعدم التغيير فيها يتمثّل في مراعاة صورة الأسباب في تلك الخوارق ليظلّ قانون السببيةِ عالقاً بذهن المكلّف، ومرتبطاً بإقامة الكون وحركة الحياة، والقرآن الكريم زاخرٌ بالآيات التي يمكن

---

[1] المصدر نفسه ص (146).

[2] البخاري رقم (1961).

[3] أصول الاعتقاد في سورة يوسف ص (501).

[4] الإيمان بالقدر ، للقرضاوي ص (56).

الاستدلالُ بها في هذا الصدد[1]، منها قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ﴾ [البقرة: 60]، وفي الكلام حذف تقديره: فضرب فانفجرت[2]، قال القرطبي: وقد كان الله تعالى قادراً على تفجير الماء، وفلق الحجر من غير ضرب، ولكنْ أرادَ أن يربط المسببات بالأسباب، حكمةً منه للعباد في وصولهم إلى المراد، وليرتّب على ذلك ثوابهم وعقابهم في الميعاد[3].

6 . تهيئة الأسباب لوقوع مراد الله:

إذا أراد الله وقوع شيء في هذا الوجود هيأ له أسبابه التي يقع بها، وذلك لأنّه جعل نظام هذا الكون مبنياً على سنن لا تنخرِمُ إلا بمشيئة الله عز وجل، كما هو الشأنُ في المعجزات وخوارق العادات، وهو استثناءٌ من القاعدة التي قام عليها الكونُ من اعتبار الأسباب حقيقة في الوصول إلى مسبباتها، وقد قيل: إذا أراد الله أمراً يسّر أسبابه.

ومن التطبيقات الواضحة لهذا العنوان في القرآن الكريم ما جاء في حيثيات غزوة بدر وملابساتها، حيث هيأ الله تعالى أسبابَ النصر للمسلمين في هذا اليوم، ولم يجعل نصرهم في ظاهر الأمر من قبيل الخوارق المحضة، التي ليس للسبب فيها نصيبٌ، خاصّةً في مثل هذا الموقف الشديد الذي عانى فيه المسلمون من قلّة العدد والعتاد، كلُّ ذلك ليتبيّن للمسلمين قبل غيرهم أنَّ السنن الإلهية والقوانين الربانية التي قام عليها نظامُ الكون لا تتخلّفُ عادةً، وقد تجلّت هذه الأسباب، وظهرت فيما جاء في قوله تعالى عن غزوة بدر: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ *﴾[الأنفال: 11].

فإنّ إغشاءهم النعاس كان من أسباب النصر، لأنّهم لما ناموا زال أثرُ الخوفِ من نفوسهم في مدة النوم، ولما استيقظوا وجدوا نشاطاً، ونشاطُ الأعصاب يكسِبُ صاحبه شجاعةً، ويزيلُ شعورَ الخوف الذي هو فتور الأعصاب[4].

---

[1] السنن الإلهية ، د. مجدي عاشور ص (147).

[2] المصدر نفسه ص (148).

[3] الجامع لأحكام القران ، القرطبي (419/1).

[4] تفسير التحرير والتنوير (278/9).

7. الأسباب تعمل مع تحقق الشروط وانتفاء الموانع:

فكلُّ سببٍ موقوفٌ على وجود الشروط، وانتفاءِ الموانع[1]، ولا بدّ من تمام الشروط، وزوال الموانع . أي في إنتاج الأسبابِ . وكلُّ ذلك بقضاءِ الله وقدره، وليس شيءٌ من الأسباب مستقلاً بمطلوبه، بل لا بدّ من انضمام أسباب أخرى إليه، ولا بدّ أيضاً من صرف الموانع والمعارضات عنه حتى يحصلَ المقصود، فالمطر وحدَه لا ينبتُ النبات، إلا بما ينضم إليه من الهواء والتراب وغير ذلك، ثم الزرعُ لا يتمُّ حتّى تُصْرَفَ عنه الافات المفسدة له، والطعام والشراب لا يغذِّي إلا بما جعل الله في البدن من الأعضاء والقوى[2] قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ *أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ *﴾ [الواقعة: 63 . 64] أي: إذا كانت منكم الحراثة والبذر مع إعانتنا لكم على ذلك، فإنّ إتمامَ الزرع والإثمار، وتوفير الشروط، وإزالة الموانع، من شأننا نحن، ويؤكّد ذلك قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خلق السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ *﴾[النمل: 60]. فقد ذكر إنزال الماء لأنه من جملة ما خلق الله، ولقطع شبهة أن يقولوا: إنّ المنبِتَ للشجر الذي فيه رزقُنا هو الماء، اغتراراً بالسبب، بودر بالتأكيد بأنّ الله خلق الأسباب، وهو خالق المسببات بإزالة الموانع والعوارض العارضة لتأثير الأسباب، وبتوفير القوى الحاصلة في الأسباب، وتقدير المقادير المناسبة للانتفاع بالأسباب، فقد ينزل الماء بإفراطٍ، فيجرف الزرعَ والشجر، أو يقتلهما، ولذلك جمع بين وقوله: تنبيهاً على إزالة الشبهة[3].﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا﴾

8. إنكار قانون السببية يؤدي إلى إبطال حقائق العلوم:

لقد ثبت بنصّ القرآن الكريم أنّ الأسباب الشرعية هي محلّ حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهي في اقتضائها لمسبّباتها قدراً، فهذا شرعُ الربِّ، وذلك قدرُه، وهما خلقُه وأمرُه، والله له الخَلْقُ والأمر، ولا تبديل لخلق الله، ولا تغيير لحكمه، فكما لا يخالِفُ سبحانه الأسبابَ القدرية وأحكامَها، بل يجريها على أسبابها، وما خُلقتْ له، فهكذا

[1] مجموع الفتاوى (133/8).
[2] ئالمصدر نفسه (167/8).
[3] تفسير التحرير والتنوير (11/20).

الأسباب الشرعية لا يخرِجُها عن سببها وما شُرِعت له، بل هذه سنّتُه شرعاً وأمراً، وتلك سنّته قضاءً وقدراً، قال تعالى:

﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً *﴾[فاطر: 43].

فالمسبّبات مرتبطةٌ بأسبابها شرعاً وقدراً، ولذلك فطلبُها من غير أسبابها مذمومٌ، كما أنَّ إنكار الأسباب لأن تكون موصلةً لها بأنّها أمرٌ مردودٌ، بل إنّ النتائجَ المترتبة على إنكار قانون النسبية كافية لهدم حقائق العلوم كلها، فإنّ العلوم جميعُها تستند إلى هذا القانون[1].

ونفي الأسباب أن تكون أسباباً نقصٌ في العقل، وهو طعنٌ في الشرع أيضاً، فالله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[البقرة: 164]، وقال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ﴾[المائدة: 16][2].

والحاصل أنّه قد ثبت بالقطع أنّه لا مكان في هذا الوجود للمصادفة العمياء ولا للفلتة العارضة، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ *﴾[القمر: 49]، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا *﴾[الفرقان: 2] وقال تعالى: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا *﴾[النساء: 19]، وقال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ *﴾[البقرة: 216].

والأسبابُ التي تعارف عليها الناسُ قد تتبعها اثارُها، وقد لا تتبعها، والمقدّمات التي يراها الناس حتميةً قد تعقبها نتائجُها، وقد لا تعقبُها، ذلك أنه ليست الأسبابُ والمقدّماتُ هي التي تنشيءُ الاثار والنتائج، وإنّما إرادة الله هي التي تنشئ الاثار والنتائج، تهيّءُ الظروف لتحققها، كما تنشئ الأسبابَ والمقدّماتِ

﴿لاَ تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا *﴾[الطلاق: 1]، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾[الإنسان: 30].

والمؤمن يأخذُ بالأسباب لأنّه مأمورٌ بالأخذ بها، والله هو الذي يُقدر اثارها ونتائجها، والاطمئنان إلى رحمة الله

---

[1] السنن الإلهية ، د. مجدي عاشور ص (158).

[2] السنن الإلهية ، د.مجدي عاشور ص (158).

وعدله، وإلى حكمته وعلمه، هو وحده الملاذ الأمين، والنجاة من الوسواس والهواجس: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ [البقرة: 268][1].

9. منازعة الأقدار بالأقدار:

من الأصول القطعية مباشرةُ الأسبابِ، وعلى هذا فإنَّ تركها قدحٌ في الشرع، ممّا يدحضُ ادّعاءات الجهّال والمغرضين، ونزيدُ هنا فنقول: إنّ صاحبَ الإيمان بالقدر ينازعُ القدرَ بالقدر، بمعنى أنْ لا يستسلمَ للقدرِ ما دام له دافعٌ أو رافعٌ أو مانعٌ، فيأخذ من الأسباب ما يحقّق ذلك، قال الشيخ عبد القادر الجيلاني: كثيرٌ من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، وأنا انفتحت لي روزنةٌ، فنازعتُ أقدارَ الحقِّ بالحقِّ للحقِّ، وما قاله هذا الشيخ الجليل العارف بالله حقٌّ، ويريدُ بقوله رحمه الله تعالى: إنّه يدافعُ المقدورَ ما دام في مدافعته مجالٌ مستعيناً بالله تعالى، مبتغياً وجهه.

وتفصيلُ ذلك أنَّ المسلمَ مطالبٌ بأخذ الوقاية من المحذور لئلا يقع، ويرفعه ويدفعه إذا وقع.

فمن الأوّل أخذُ الحمية، لئلا يقع المرض، والابتعاد عن محلّ الوباء، لئلا يصابَ به الإنسانُ، والتحصن وراءَ الجدُرِ والحصون في الحروبِ، وقايةً من العدو، وليس في هذه الوقاية ومباشرةِ أسبابها مناقضةٌ للإيمان بالقدر، وإنّما أخذٌ بقدرٍ لمنع قدرٍ، والقدرُ ما دام مجهولاً عندنا فهو محتمَلُ الوقوعِ، فنحن نباشر أسبابَ عدم وقوعه، فإن كان مكتوباً عند الله وقوعُه لم يتيسّر لنا مباشرة أسبابُ دفعه، أو تتيسر لنا هذه الأسباب، ولكن لا تؤدي إلى نتيجتها لوجودِ مانعٍ يمنع من إفضائها إلى مسبّبها، والمقصودُ هنا أنَّ مباشرة الأسبابِ لمنع وقوعِ ما يُحْتَمَلُ وقوعُه من الأقدار ليس فيه مناقضةٌ للمعنى الصحيح للقدر، وإنّما هو أخذٌ بقدرٍ لمنع قدرٍ، لأنّ السببَ والمسبّب بقدرِ الله تعالى، جاء في الحديث الشريف: قيل: يا رسول الله، أرأيتَ أدويةً نتداوى بها، ورقًى نسترقي بها، وتقاة نتقيها، هل تردُّ من قدر الله شيئاً؟، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هي مِنْ قَدَرِ الله»[2].

فإذا كان من قَدَرِ الله أنْ لا يصاب الإنسانُ بالمرض قدّر الله له مباشرةَ ما يدفع به وقوعَ المرضِ.

---

[1] المصدر نفسه ص (161).

[2] الترمذي (399/4) حسن صحيح.

وعندما وصل الخليفةُ العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مشارفِ الشام وعلمَ بنزول الطاعون فيهم، وهمّ بالرجوع، قال له أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: أفرارٌ من قدر الله يا أمير المؤمنين؟.

فقال رضي الله عنه: لو كان غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله، ونقع في قدر الله، ثم قال عمر رضي الله عنه ما معناه: لو كان عندك غنم أو إبلْ وأمامك عدوةٌ مجدبةٌ، وأخرى مخصبةٌ، فإذا نزلتَ بالمجدبة أو المخصبة أو تحوّلت من المجدبة إلى المخصبة، فكلُّ ذلك بقدرِ اللهِ[1].

ومن النوع الثاني من منازعة الأقدار بالأقدار مباشرةُ الأسباب الرافعة للقدر بعد وقوعه، كتناول الدواء لرفع المرض، وطرد الأعداء والكفرة من ديار المسلمين بعد تسلّطهم، بإعداد العُدّة لذلك، ثم قتالهم، ومثاله أيضاً انحباسُ المطر يُرْفَعُ بالالتجاء إلى الله، والإنابة إليه، واستغفاره، كما هو معروفٌ في الفقه في باب صلاة الاستسقاء، وكما دلَّ عليه قوله تعالى حكايةً عن نبيه نوح عليه السلام وما قاله لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا *يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا *﴾[نوح: 10 ـ 11]. فالالتجاءُ إلى الله؛ والإنابة إليه، واستغفاره من أهم الأسباب لدفع المكروه، ورفعه بعد وقوعه، ومنعه من الوقوع قبل أن يقعَ، وهذه معانٍ يفقهها أهل الإيمان، لا أهلُ الكفر والجهالة والعصيان[2].

* * *

---

[1] الإيمان بالقضاء والقدر ، عبد الكريم زيدان ص (29).

[2] المصدر نفسه ص (30).

رابعاً: الدعاء والقدر:

الدعاء مثل سائر الأسباب، كالتوكل والصدقة... سببٌ لجلب المنافع ودفع المضار[1]، ثم الدعاء. مع ثبوتِ كونه سبباً داخلٌ في القضاء، ولا خرج عن القضاء، فإنَّ الدعاءَ من جملةِ ما سبق به القضاء، لأنّ الله سبحانه أحاط بكلِّ شيء علماً، وقدّر كلَّ شيءٍ تقديراً، ولا يمكن أن يخرجَ شيءٌ عن قضائه، فلهذا الدعاءُ نفسُه داخلُ القضاء، إذا قدر الدعاء، وأنّه سبب لكذا، فلا بدَّ أن يدعوَ الرجلُ، وأن يتسبّب ذلك فيما جعله الله سبباً.

فالدعاء سببُ لجلب النفع، كما أنّه سببٌ لدفع البلاء، فإذا كان أقوى منه دفعه، وإن كان سببُ البلاء أقوى لم يدفعه، لكن يخففه ويضعفه، وليس شيءٌ من الأسباب أنفعُ من الدعاء، ولا أبلغُ في حصول المطلوب.

ولهذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عند انعقاد أسباب الشر بما يدفع موجبها بمشيئة الله تعالى وقدرته من الصلاة والدعاء والذكر، والاستغفار والتوبة، والإحسان بالصدقة والعتاقة، فإنّ هذه الأعمالَ الصالحةَ تعارِضُ الشرَّ الذي انعقد سببه، كما في الحديث: «إنّ الدعاءَ والبلاءَ ليلتقيان بينَ السماءِ والأرضِ فيعتلجان»[2]، وهذا كما لو جاء عدوٌّ، فإنّه يدفع بالدعاءِ وفعل الخير وبالجهاد له، وإذا هجمَ البردُ يدفع باتخاذ الدفء، فكذلك الأعمالُ الصالحةُ والدعاء[3].

---

[1] الفتاوى (550/10).

[2] صحيح الجامع ، للألباني (7616).

[3] الدعاء ومنزلته من العقيدة ، جيلان العروسي (356/1).

ويدل على دفاع العدو بالدعاء مع الجهاد قوله صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص: «هل تُنْصَرُوْن إلا بضعفائكم»، ولفظ النَّسائي: «إنّما نَصَرَ اللهُ هذه الأمةَ بضعفتهم بدعواتهم وصلاتهم وإخلاصِهم»[1].

والحاصل أنّ من جملة القضاء ردَّ البلاء بالدعاء، فالدعاءُ داخلٌ تحت القضاءِ، وليس خارجاً عنه[2].

1 . دلالة القرآن الكريم على تأثير الدعاء:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر: 60]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة: 186]، وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾[النساء: 32].

إنّ الله سبحانه وتعالى نهى في هذه الآية عن الحسدِ، وتمنّي زوالِ نعمة الغير، وأمرَ بسؤاله من فضله، فدلَّ على أنّه بسبب السؤالِ يعطي مثلما أَعطَى لذلك الذي فضله، وربما يعطي أكثر، فلو كان الدعاء والسؤال لا أثر له في إعطاء السائل ما تمنّاه وسأله، لزم أنّه لا فائدةَ في الأمر به في هذا المقام، وهذا يخالِفُ ما يقتضيه سياق الآية[3].

وقد وردت آيات كثيرة جداً، ذكر الله فيها ما وقع لأنبيائه وأوليائه وعباده الصالحين من المحن والبلايا والشدائد العظام، فاستغاثوا بربهم، وتضرّعوا له، وابتهلوا إليه، فاستجابَ الله لهم، وكشفَ عنهم تلك المحن بعد دعائهم، وقد حكى الله لنا ألفاظَ دعواتهم، وصيغَ ابتهالاتهم، لنقتديَ بها، ونأخذَ العبر والدروس، ومن تلك الدروس التي نأخذها تأثيرُ الدعاء وفائدته العظيمة في جلب المنافع، ودفع المضار، وأنه سمة العبودية، وأنّه الغذاء الروحي، لا سيما عند نزول الشدائد المدلهمة[4].

---

[1] البخاري رقم (2896) النسائي (37/6).

[2] الدعاء ومنزلته من العقيدة (357/1).

[3] المصدر نفسه (359/1).

[4] الدعاء ومنزلته من العقيدة (360/1).

ومن ذلك :

أ . ما حكى الله لنا عن نوح عليه السلام ممّا يدل على تأثير الدعاء:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ *﴾[الصافات: 75]، ما أصرحَها في تأثير الدعاء، وأوضحَها وأبينَها من حجةٍ قاطعةٍ! وما أبلغَها من برهانٍ ساطعٍ! ومثلها قوله تعالى في قصة نوح أيضاً: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ *﴾[الأنبياء: 76 . 77].

ب . دعاء أيوب عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ *فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ *﴾[الأنبياء: 83 . 84].

تدل الآيتان على المقصود من عدة أوجه، منها العطف بالفاء السببية في الموضعين: (فاستجبنا، فكشفنا)، ودلالة (فاستجبنا وكشفنا) اللغوية، ودلالة السياق، هذه الدلالاتُ الواضحةُ على تأثيرِ الدعاء[1].

ج . دعاء يونس عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾ ﴿أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ *﴾[الأنبياء: 87 . 88].

فدلّتِ الايتان على أنّ الدعاء هو السبب في نجاته من عِدّة أوجه: منها إلغاءُ السببية، ومنها كلمتا: (استجبنا، ونجينا) كما دلّت على أنّ هذا ليس خاصاً به، بل المؤمنون عامةً إذا وقعوا في شِدّةٍ، واستغاثوا بربّهم فهو ينجيهم، كما دلّت أيضاً على أنّه لولا الدعاءُ لما نجا من هذا الكرب العظيم، ولبقي في بطن الحوت، وقد صرّحت بذلك آية أخرى قال تعالى: ﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ *لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ *﴾[الصافات: 143 . 144]، فكلمة

---

[1] المصدر نفسه (362/1).

(لولا) في مثل هذا الموضع تدلُّ على امتناع الجملة الثانية لوجودِ الأولى[1]، وهذا صريحٌ قاطع في أنَّ الدعاءَ هو السببُ في نجاته، ولو لم يحصل الدعاءُ لما نجا، ولبقيَ في بطن الحوت إلى يوم القيامة[2].

د . دعاء زكريا عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ *فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ *﴾[الأنبياء: 89 . 90].

ففي هذا ترتيبٌ للاستجابةِ على النداء، كما أنَّ فيه تعليلاً للاستجابة بكونهم مسارعينَ في الخيرات، وداعين الله رغبة ورهبة[3].

هـ في قصة موسى وهارون في استغاثتهما بالله:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ *قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ *﴾[يونس: 88 . 89].

فصرّحتِ الايتان بإجابة دعوتهما، واستغاثتهما بالله تعالى، وأنّ ذلك عقب ابتهالهما إلى الله تعالى، فدلَّ هذا على ترتيبِ الإجابةِ على الدعاء ترتب المسبب على السبب[4]، كما في قوله تعالى في قصة تضرّعِ موسى، وابتهاله إلى الله: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي *وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي *﴾[طه: 25 . 26] إلى أن أجابه الله بقوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى *﴾[طه: 36]، ما أوضحَها في الدلالةِ على تأثير الدعاء في الإجابة[5]!

---

[1] الدعاء ومنزلته من العقيدة (362/1).
[2] المصدر نفسه (362/1).
[3] المصدر نفسه (363/1).
[4] المصدر نفسه (364/1).
[5] المصدر نفسه (364/1).

و ـ دعاءُ المؤمنين من الأمم السابقة:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ *فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾[البقرة: 250 ـ 251]، وقال أيضاً: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ *فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ *﴾[آل عمران: 147 ـ 148].

2 ـ دلالة السنة النبوية على تأثير الدعاء:

وأمّا السنة الدالة على تأثير الدعاء، فأكثرُ من أن تحصرَ، فقد تواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمران: الأول: فعله للدعاء، والثاني: حَثُّه وترغيبُه في الدعاء[1]، ومن الأدلة ما يلي:

أ ـ حديث أنس بن مالك:

قال: بينما النبيُّ صلى الله عليه وسلم يخطبُ يومَ الجمعةِ، إذ قامَ رجلٌ فقال: يا رسول الله هلك الكراعُ، وهلك الشاءُ، وفي رواية: وجاع العيال، وفي رواية أخرى: هلكتِ الأموالُ، وانقطعتِ السبُلُ، فادع الله أن يسقيَنا. فمد يديه ودعا، وفي رواية: وما نرى في السماء قزعةً، فوالذي نفسي بيدِه ما وضعها حتى ثار السحابُ أمثالَ الجبالِ، ثم لم ينزلْ عن منبرِه حتى رأيتُ المطرَ يتحادَرُ على لحيته صلى الله عليه وسلم، فمُطرنا من الجمعةِ إلى الجمعة.

ثم جاء ذلك الرجل أو غيرُه في الجمعةِ المقبلةِ فقال: تهدّمتِ البيوتُ، وانقطعتِ السبلُ، فادع الله يمسِكُها، فرفع يديه فقال: «اللهمَّ حوالينا ولا علينا»، فما يشيرُ بيدِهِ إلى ناحيةٍ من السحابِ إلاّ انفرجتْ[2].

---

[1] الدعاء ومنزلته في العقيدة (366/1).

[2] البخاري رقم (932) ، مسلم رقم (897).

ب . حديث النزول

وهو حديثٌ مشهورٌ متواترٌ، ومن طرقه، ما رواه أبو هريرة أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ينزلُ ربُّنا تباركَ وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السماءِ الدُّنيا حتى يبقى ثلثُ الليلِ الأخيرِ فيقول: مَنْ يدعوني فأستجيبَ له؟ ومَنْ يسألني فأُعطِيَه؟ ومَنْ يستغفِرني فأغفرَ له؟»[1].

إنَّ المشاهدة لتأثير الدعاء لمن أكبر الأدلّة وأصدقِها برهاناً، وأقواها حجةً، فنحن رأينا وشاهدنا في أنفسنا ومن حولنا تأثيرَ الدعاء، فمن منا لا يقعُ في شدّةٍ وكربٍ وضيقٍ ثم يستغيثُ بربه، فلا يرى أثرَ ذلك؟ فنحن نشاهد في حياتنا وأيامنا القصيرة وقائع لنا ولغيرنا تحصلُ فيها إجابة الدعاء بعد يأسٍ وقنوطٍ من المخلوقات، وبعد انقطاعِ السبلِ والحِيَلِ، فهذا يكفي وحدَه للدلالة.

والحقُّ الذي لا مريةَ فيه أنَّ الدعاءَ سببٌ من الأسباب، وأنّ له تأثيراً في جلب المنافع، ودفع المضار، كسائر الأسباب المقدّرة والمشروعة، وأنّه لا منافاةَ بين القدر والدعاء، فالدعاءُ من جملةِ ما سبقَ به القدر، وتضمّنه القدرُ السابق[2].

ولا شك أنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي حرّك العبدَ إلى الدعاءِ، ويسّره له، وهو الذي قذف في قلبِ العبدِ الحركةَ إلى الدعاءِ، وألهمه التضرّعَ والابتهال والانطراحَ بين يديه، ووفّقه لذلك، وصرف عنه الموانع من استكبارٍ وكسلٍ وغيرِ ذلك، فهذا الخيرُ منه، ولولا الله لما دعا العبد.

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنّي لا أحملُ همَّ الإجابةِ، وإنَّما أحملُ همَّ الدعاء، ولكن إذا أُلهمتَ الدعاءَ فإنَّ الإجابةَ معه[3].

فإذا أراد الله بعبد خيراً ألهمه دعاءه، والاستعانة به، وجعلَ استعانته ودعاءَه سبباً للخير الذي قضاه له[4].

---

[1] البخاري رقم (1145) ، مسلم رقم (758).
[2] الدعاء ومنزلته من العقيدة (374/1).
[3] المصدر نفسه (375/1).
[4] المصدر نفسه (375/1).

3. دلالةُ الفطرةِ على تأثير الدعاء بإذن الله:

قال تعالى:﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ *﴾ [النمل: 62] فالآية صريحةُ الدلالةِ على أنّ دعاءَ المضطرِ هو السببُ في إجابة سؤاله، وكشف السوء عنه، وهذا من آيات الله العظيمةِ الدالّة على وحدانيته، وتفرّده بالربوبية والألوهية، ولهذا أعقبه بقوله:

﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ *﴾ "[1].

والإنسان من طبيعته إذا وقع في شدّةٍ وضُيّقَ عليه تحركت فطرته ومشاعره، واتّجه إلى الله، ونسيَ ما كان يدعو من قبلُ، وهنا يوقِنُ أنّه لا منقذَ إلا الله، وتنكشف عنه الحجب، ويزول الرين، وتذهب الغشاوة، وينطرح بين يدي الله منكسراً متواضعاً مبتهلاً متضرعاً باكياً، ويجأر إلى اللهِ كاشفِ السوءِ، مجيبِ المضطرين، غياثِ المغيثين، منقذِ الهالكين، وجابرِ المنكسرين، ومنقذِ الغرقى، وسامعِ النجوى، فكم من ملحدٍ نزلت به ضائقةٌ آبَ إلى الله[2]، وكم من شاردٍ فاسقٍ وقع في مأزق تاب إلى الله، ورجع إلى طاعته، فالفطرةُ خيرُ شاهدٍ، وأقوى دليلٍ، وأنصعُ برهانٍ، وأوضحُ حجةٍ، لأنّها لا تحتاجُ إلى تركيب مقدمة، وإقامة أدلة جدلية، واستنتاجٍ، ودليلها لا يمكن مقاومتُه، ولا دفعه بالشبهاتِ والوساوسِ، ألا ترى الإنسان إذا ما وقع في معصيةٍ يتّجه مباشرةً إلى السماء، ويرفع يديه قائلاً: (يا ربِّ يا ربِّ) وهذه الحالةُ تهجم عليه، وتسيطر على تفكيره وشعوره، وتجعله يشعر أنّه لا منقذَ ولا منجيَ ولا مغيثَ إلا الله سبحانه وتعالى، فلو لم تدل الفطرةُ على تأثير الدعاء لما اتّجهت إلى الدعاء، ولكانت تلجأُ إلى وسائلَ أخرى للاستغاثة والاستعانة[3].

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى طبيعةَ الإنسانِ هذه في عِدّة آيات منها: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾[يونس: 12]،

---

(1) المصدر نفسه (359/1).

(2) العقيدة في الله لعمر الأشقر ص (67)، الدعاء ومنزلته من العقيدة (368/1).

(3) المصدر نفسه (368/1).

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾[الزمر: 8]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ *﴾[فصلت: 51]، وقوله تعالى:

﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ *﴾[النحل: 53]

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ *﴾[يونس: 22]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا *﴾[الإسراء: 67]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ *﴾[لقمان: 32].

فالإنسان في مثل هذه الشدائد ينسى تلك الأشياء التي كان يتعلّق بها، ويرجع إلى ربه، فتحصل له معرفةٌ قويةٌ من أقوى ما تكون المعارف، فإنّ المعارفَ التي تحصل في النفس بالأسباب الاضطرارية أثبتُ وأرسخُ من المعارف التي ينتجها مجرّدُ مجرد النظر القياسي الذي ينزاح عن النفوس في مثل هذه الحال[1].

* * *

---

[1] الدعاء ومنزلته في العقيدة (366/1).

الفهرس :